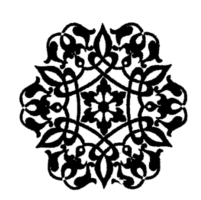


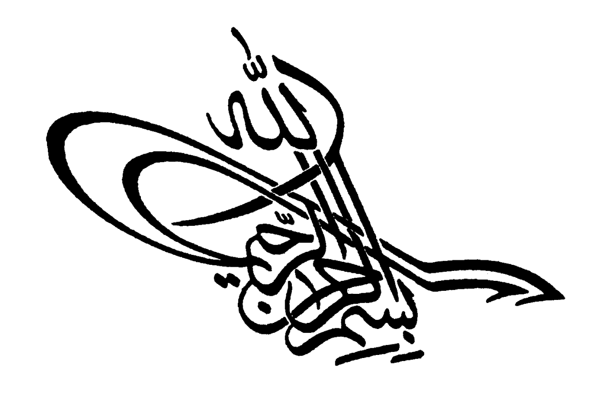


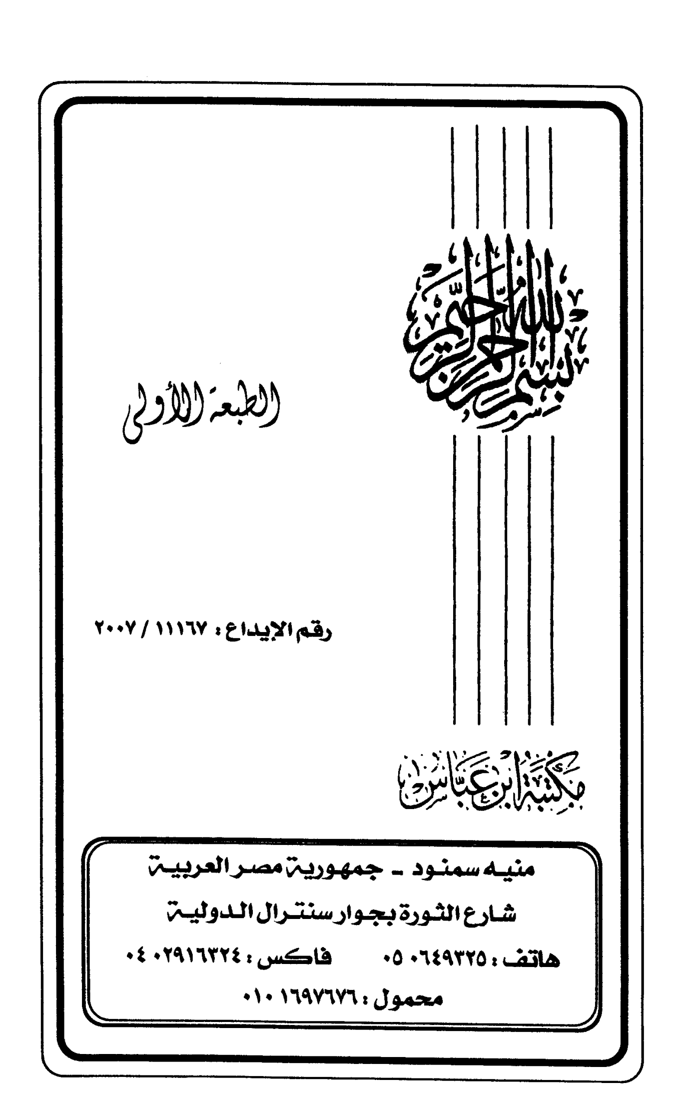
محاضرات لمعالي الشيخ

صالح بن عبدالعزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ

وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م





بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

رقم الإيداع: ١١١٦٧ / ٢٠٠٧

مكتبة ابن عباس

منيه سمنود - جمهورية مصر العربية

شارع الثورة بجوار سنترال الدولية

هاتف: ٠٦٤٩٣٢٥ ٠٥ فاكس: ٠٢٩١٦٣٢٤ ٠٤

محمول: ١٦٩٧٦٧٦ ٠١٠

مُقَدِّمَة

الحمدُ لله ذي المحامدِ كلِّها ، وذي الخيرِ كلِّه ، وذي الفضائلِ كلِّها ، الحمدُ لله الذي لــه الأسماءُ الحسنى ، وله النعوتُ العُلا .

الحمدُ لله الذي له كلُّ المحامدِ على وَجْهِ الكمالِ .

الحمدُ لله الذي هدانا للإسلامِ ، ووفَّقنا للخير الذي نحن فيه من الالتزام بكتابِهِ ، وبسنةِ رسولِه ﷺ ما استطعنا .

الحمدُ لله الذي يُحمد على الخيرات ، وهو المحمودُ على كل حالٍ .

وأشهدُ أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُ اللهِ ورسولُه ، وصفيُّه وخليلُه ، صَلّى الله وسلَّمَ عليه ، وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين ، أما بعد :

فأسألُ اللهَ - جلَّ وعلا - أن يجعلَني وإيَّاكم مِن المنتفعينَ بالقرآنِ ، المتدبرين لــه ، الذين يَسَّرَ عليهم قراءةً، وتلاوةً ، وحفظًا وتدبرًا وفهمًا ، وأسأله - جلَّ وعلا - أن يُفَهِّمَنَا منه ما به تَقَرُّ أعيُنُنَا ، وتَنْشَرِحُ به نفوسُنا ، ثم إن أولَ القرآنِ العظيمِ فاتحةُ الكتابِ ، وأولَ ما يُفَسَّرُ من القرآنِ هذه السورةُ العظيمةُ ، فتفسيرُها مع كونه محتاجًا إليه لفهمِ سبعِ آيات من القرآن ، فهومحتاج إليه من جهة أن الصلاةَ التي هي أعظمُ أركانِ الإسلامِ العمليةِ ، وإنما يَعْظُمُ أجرُها لِمَنْ تدبَّر كتابَ الله - جلَّ وعلا - الذي يتلوه فيها ، وقال ما يقوله في صلاته عن علمٍ واعتقادٍ وفهمٍ .



أسماء فاتحة الكتاب :

فاتحةُ الكتابِ سمَّاها النبيُّ - عليه الصلاة والسلام - فيما ثبت في الصحيح أنها القرآنُ العظيمُ ، والسبعُ المثاني ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : « فاتحةُ الكتابِ هي السبعُ المثاني ، والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيتُه » (١).

وفاتحةُ الكتاب افتُتحَ بها القرآنُ ، وتُسَمَّى أمَّ القرآنِ ، وأمَّ الكتابِ (٢) ، وذلك لأن هذا الكتابَ يُفْتَتَحُ بها ، ولأن الصلاةَ تُفْتَتَحُ بها ، كما ذَكَرَ هذا التعليلَ « البخاريُّ » - رحمه الله تعالى - في « صحيحه » .

وكذلك لأنَّ معانيَ القرآنِ جميعًا ، ترجعُ إلى ما ذُكِرَ في هذه السورةِ العظيمةِ ، فهي أمُّ القرآنِ باعتبارِ أنَّ معانيَ

---

(١) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب التفسير -باب ما جاء في فاتحة الكتاب) (٤٤٧٤)، من حديث «أبي سعيدِ بن المُعَلَّى» - رضي الله عنه - . انظر « فتح الباري » (٨ : ١٥٧) .

(٢) انظر الكلام على أسماء سور الفاتحة في « تفسير الطبري » (١: ١٠٥)، و«مجموع الفتاوى » (١٤: ٥) ، و«جمال القراء » (١ : ١٧٦) ، و« تفسير التحرير والتنوير » (١ : ١٣١) .

القرآنِ ترجع إلى المعاني التي في هذه السورة ، وهذا يظهر لك واضحًا جليًا عند الشروع بفهمها ، أو بعدَ الانتهاءِ من تفسيرِها .



عظم شأن الفاتحة :

هذه السورةُ العظيمةُ ثبت في « الصحيح »[(1)] أن النبي ﷺ قال : « قال اللهُ – تعالى – : قَسَمْتُ الصلاةَ بَيْني وبَيْنَ عَبْدي نِصْفَيْنِ ، فنصفُها لي ، ونِصْفُهَا لِعَبْدِي ، ولِعبْدِي ما سَأَلَ » ، ويعني بالصلاةِ فاتحةَ الكتابِ .

فهي بين العبدِ ، وبينَ ربِّه في صلاتِه ، وهذا يُنبِئُ عن عِظَمِ شأنها في الصلاة .

قال النبيُّ – عليه الصلاة والسلام –: « قال اللهُ : فإذا قالَ عَبْدي ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، قالَ اللهُ : حَمِدَني عَبْدي ، وإذا قالَ العبدُ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، قالَ اللهُ – جلَّ وعلا– : أثْنَى عليَّ عَبْدي ، وإذا قال العبدُ في صلاتِه : ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، قال اللهُ – جلَّ وعلا – : مَجَّدَني عَبْدي ، فإذا قال العبدُ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ

---

(1) أخرجه « مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الصلاة – باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة ..) (٣٩٥) من حديث « أبي هريرة » ، رضي الله عنه.
انظر « مجموع الفتاوى » (١٤ : ٤) ، و« جمال القراء » (١ : ٤٣١) .

وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، قالَ اللهُ : هذه بَيْنِي وبينَ عَبْدِي ولعبدِي ما سأل ، فإذا قال العبدُ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قال الله – جل جلاله – : هذه لِعَبْدِي ، ولِعَبْدِي ما سَأَلَ » .

وهذا الذي وُصِفَ بهذا الحديثِ ، لا شكَّ أنه متفرعٌ عن فَهْمِ هذه السورةِ ، وفهمِ معانيها ، وتَدَبُّرِ آياتها

فليس سواءً عالِمٌ وجهولُ ....

لا يستوي من يتلو هذه الآيات من سورةِ الفاتحةِ ، وهو يعقلُ معانيها ، ويفهمُ دَلالاتها مع مَنْ يُرَدِّدُهَا بلسانه ، وقلبُه مشغولٌ عنها ، أو جاهلٌ بها ، وما أعظمَ أن تكونَ الصلاة مناديًا لله – جلَّ وعلا – بهذه السورة العظيمة ! هذه السورةُ هي فاتحةُ الكتابِ ، وهي السبعُ المثاني ، كما ذَكَرَها النبيُّ ﷺ في هذا الحديثِ ، وبها فسَّرَ قولَه – تعالى – : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [1] فالسبعُ المثاني

---

(١) (الحجر : ٨٧) .

فُسِّرَتْ بأنها الفاتحةُ كما فَسَّرَها النبيُّ ﷺ ، وكذلك فُسر القرآنُ العظيمُ مع السبعِ المثاني معاً بأنها فاتحة الكتاب ، كما مرَّ معنا في حديث « أبي سعيدِ بنِ المُعَلَّى » - رضي الله عنه - ، الذي رواه « البخاريُّ » [1] وغيرُه .



(١) تقدم تخريجه ص (٧) .

البُداءة بالاستعاذة والبسملة عند تلاوة الفاتحة :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

هذه السورةُ مبتدأةٌ بالبسملة ، وبما أَمَرَ اللهُ - جلّ وعلا - به القارئَ للقرآنِ أن يبدأ قراءَتَهُ بالاستعاذة بالله منَ الشيطانِ الرجيمِ ، فكانَ لزاماً عليه أن يفهمَ ، وأن يَعْلَمَ معنى الاستعاذةِ باللهِ - جلّ وعلا - من الشيطانِ الرجيمِ ، قال - سبحانه - : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [1] .

❁ ❁ ❁

---

(1) (النحل : ٩٨) .

صيغ الاستعاذة :

يبتدئُ التالي للقرآن في الصلاة ، وفي خارج الصلاة بقولـــه : « أعوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيمِ » ، وإن زاد صفة من صفات الله - تعالى - تنـــزيهًا وتعظيمًا لـــه ، كأن يقول : « أعوذُ باللهِ السميعِ العليمِ من الشيطانِ الرجيمِ » فلا ينسب إلى الجهل ، فهذا قد جاءت به السنةُ ، وكُلٌّ واردٌ ، وكما قال الشاطبي[1] :

.................وإن تَــزِدْ لِرَبِّكَ تنْزيهًا فَلَسْتَ مُجَهلاً

يعني : إذا أتيتَ في الاستعاذةِ بأنواعِ الصفاتِ مثل : « أعوذُ باللهِ السميعِ العليمِ من الشيطانِ الرجيمِ » [2] ، ولو قلت : « أعوذُ باللهِ الحيِّ القيُّومِ من الشيطانِ الرجيمِ » « فلست مجهلاً » فالكلُّ سائغٌ ، والأحسنُ الإتباعُ ، وقد جاء في هذا صفتان :

---

(١) في « حرز الأماني » ٨ والبيت بتمامه :

على ما أتى في النحل يُسْرًا ، وإنْ تَزِدْ لِـــرَبِّكَ تـــنـــزيهًا فَلَسْتَ مُجَهَّلاَ

(٢) رواه أصـــحاب السنن الأربعة ، و « أحمد » عن « أبي سعيد الخدري » - رضي الله عنه - بإسناد جيد ، وقال الترمذي : هو أشهر حديث في هذا الباب .

انظر « النشر في القراءات العشر » (١ : ٢٤٩) في هذا المقام كلام طيب .

الأولى : « أعوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيمِ » [1] وهي التي جاء بها القرآنُ .

والثانية : ما ثبتت بها السنةُ : « أعوذُ باللهِ السميعِ العليمِ من الشيطانِ الرجيمِ منْ هَمْزِهِ ونَفْخِهِ ونَفْثِهِ » [2] .

و(همزُ الشيطانِ) : الموتةُ ، يعني الجنون ، وهو نوعُ مرضٍ يأخذُ المرضَى بالخنق ، و(نَفْخُ الشيطانِ) : الكِبْرياء ، و(نَفْثُ الشيطانِ) الشِّعرُ الذي يُراد به الباطلُ ، وهذا مما ثبتَ في السنةِ .



(١) هذا هو المختار ، وهو المأخوذ به عند عامة الفقهاء كأبي حنيفة والشافعي وأحمد ، وقد ورد النص بذلك في الصحيحين وغيرهما . انظر « جمال القراء » (١ : ٢٧١) ، و« النشر في القراءات العشر » (١ : ٢٤٣ - ٢٤٦) .

(٢) أخرجه « أبو داود » في « سننه » في (كتاب الصلاة -باب من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك) (٧٧٥) ، و « الترمذي » في « جامعه » في (كتاب الصلاة عن رسول الله ﷺ - باب ما يقول عند افتتاح الصلاة) (٢٤٢) ، من حديث « أبي سعيد الخدري » ، رضي الله عنه .

وانظر « النشر في القراءات العشر » (١ : ٢٥١) .

معنى الاستعاذة :

يقولُ التالي للقرآن : « أعوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيمِ » ، ومعنى « أعوذُ » : أعتصمُ وألْتجئُ وأتحرَّزُ « باللهِ » معبوديَ الحقِّ الذي لا أعبدُ سواه ، ولا أفوضُ أمري إلا إليه « من » شرِّ « الشيطانِ الرجيمِ » الذي رُجِمَ ورُمِيَ وأُبْعِدَ وطُرِدَ من رحمةِ اللهِ - جلَّ وعلا - ، من شياطينِ الجنِّ ، ومن شياطينِ الإنسِ ، أن يصيبوني بأذًى في نفسي ، أو بأذًى ونقصٍ في ديني ، أو أنْ يصرفوني عن الالتزامِ بأمرِ ربِّي ، أو أن يحملوني على الإقبالِ على ما لا يُحِبُّ إلهيَ ومولايَ الذي أعبُده .

فقول الله - تعالى- : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيَاطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [1] ، وقوله

---

(١) (المؤمنون :٩٧ ، ٩٨) .

- جلّ وعلا - : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ [1] ، وقوله - سبحانه وتعالى- : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ [2] .

كلُّ هذا معناه أَلْتَجِئُ وأعتصمُ وأَتَحَرَّزُ من شرِّ الشيطانِ أن يصيبَني بشيءٍ على النحو الذي وَصَفْتُ .

إذن فمعنى العياذِ ، هو الالتجاءُ والاعتصامُ والتحرزُ باللهِ ، فتلحظ أنك عندما تقول : « أَعُوذُ » ، معنى ذلك أنك تخلي القلبَ في كفِّ الشر عنكَ ، من كلِّ ما سوى اللهِ -جلّ وعلا- ، وتعلمُ أنَّ الذي يكفُّ شرَّ الشيطانِ ، وشياطينَ الجنِّ والإنسِ عنكَ إنما هو اللهُ ، جلّ وعلا.

« أعوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيمِ » مناسبتها للتلاوة أنَّ التاليَ حين يتلو يحضُرُه الشيطانُ ليَصْرِفَهُ عن تدبُّرِ الآيِ ، ليَحْمِلَهُ على الوَسْوَسَةِ ، ليَجْعَلَهُ غيرَ ملتزمٍ بما تَلا ، وكلُّ هذا وأمثاله من شرورِ الشيطانِ ، التي يُستعاذُ باللهِ - جلّ وعلا- منْها .

---

(١) (الفلق : ١) .

(٢) (الناس: ١) .

« أعوذُ باللهِ »، « باللهِ » يعني : بالمعبودِ الحقِّ ، الذي ليس ثَمَّ معبودُ حقٌّ إلاَّ هوَ – جلَّ وعلا – ، بمعبودي الذي أعبدُهُ ، وأتَوَجَّهُ إليه في كلِّ عِبَادَتِي .

وفي ضمنِ ذلك معاني الرُّبوبية لَه – جلَّ وعلا – ، الذي أفوضُ أمري إليه ، وأتوكلُ عليه ، وأعتصمُ به ، وأطلبُ الخيرَ منه ، وأطلبُ البعدَ عن الشرِّ منهُ ، وهذا هو اللهُ – جلَّ وعلا – الذي بيدِهِ ملكوتُ كلِّ شيءٍ .



الاستعاذة بغير الله شرك :

« أعوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيمِ » فالمستعاذُ به هو اللهُ - جلَّ وعلا - وحدَهُ، والاستعاذةُ عبادةٌ من العباداتِ ، ولكنَّها عبادةٌ قلبيةٌ ، لا تُنْـــزلُ إلاَّ باللهِ - جلَّ وعلا - ، فلا تجوزُ الاستعاذةُ بغيرِ اللهِ - جلَّ وعلا - ، ومَنِ استعاذَ بغيرِ اللهِ - جلَّ وعلا - ، فقد أشْرَكَ ؛ لأنَّ اللهَ - جلَّ وعلا- هو الذي يَحْمِي من الشرِّ ، وهو الذي يُفيضُ الخيرَ ، ويمنعُ الشرَّ ، قال - جلَّ وعلا - : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(1) ، وقال - جلَّ وعلا - في الآية الأخرى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (2) ، وقال - تعالى - : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن

---

(1) (الأنعام : ١٧) .

(2) (يونس : ١٠٧) .

رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (1) .

فالذي يمنعُ الشرَّ عن العبدِ ، هو اللهُ - جلَّ وعلا - ، والذي يفيضُ الخيرَ على العبدِ هو اللهُ - جلَّ وعلا - ، وأعظمُ أهلِ الشرِّ شرًّا على العبدِ المؤمنِ الشيطانُ الرجيمُ ، الذي هو إبليسُ وجنودُهُ من الجنِّ ومن الإنسِ ؛ لأن أعلى وأغلى ما عند العبدِ المؤمنِ في هذه الحياةِ أن يستقيمَ على الإسلامِ ، ولا يمكن أن يستقيمَ على الإسلامِ ، إلا أن يكونَ متحصِّنًا متحرِّزًا من الشرورِ التي يصيبُه بها ، ويعتدِي عليه بها الشيطانُ من الإنسِ ومنَ الجنِّ .

فلذا يستعيذُ المرءُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ .



(1) (فاطر : ٢) .

معنى « الشيطان » في لغة العرب :

قال أهلُ العلمِ : إن « الشيطانَ » مأخوذٌ من « الشَّطْنِ » ، وهو البُعْدُ ؛ لأن « الشيطان » يطلقُ في اللغة على البعيدِ عن الخيرِ ، فكلٌّ بعيدٍ عن الخيرِ يقال لـــه : « شَيْطَانٌ » [(١)] ، أو البعيدُ عما عليه أجناسُهُ ، ولهذا قيل لإبليس : إنه « شيطان » ، وإذا أُطْلِقَ لفظُ « الشيطان » فإنه يدخلُ فيه دخولاً أَوَّلِيًّا « إبليسُ »، و « الشيطانُ » يَشْمَلُ شيطانَ الإنسِ ، وشيطانَ الجنِّ ، وذلك لأن شيطانَ الإنسِ قد بَعُدَ عن الخيرِ ، وشيطانَ الجنِّ كذلك بعيدٌ عن الخيرِ ، ومما يَدُلُّ له - كما قال المفسرون - ، قولُ الشاعر [(٢)] :

---

(١) قـــال « الفيومي » في « المصباح المنير » (مادة شطن) : « وفي الشيطان قولان : أحدهما : أنه من (شَطَنَ) إذا بَعُدَ عن الحق أو عن رحمة الله فتكون النونُ أصليةً ، ووزنـــه (فَيْعالٌ) وكلُّ عَاتٍ متمردٍ من الجنِّ والإنسِ والدوابِّ فهو (شَيْطَانٌ) . ووَصَفَ أعرابيٌّ فرسَهُ فقال : كأنه (شَيْطَانٌ) في (أَشْطَانٍ) .
والقـــول الـــثاني : أن الـــياءَ أصليةٌ والنونَ زائدةٌ عكسُ الأوَّلِ وهو من (شَاطَ) (يَشِيطُ) إذا بَطَلَ أوِ احْتَرَقَ فوزنه (فَعْلانٌ) . » .

(٢) الشاهد فيه أن « الشيطان » نونه أصلية . وهذا البيت لـــ « أمية بن أبي الصلت » يصف سليمان بن داود ، عليهما السلام . أنه كان يوثق بالقيد كلَّ شيطان يعصيه. والبيت في «تفسير ابن كثير» (١: ١١٥) و«الدر المصون» (١: ١٠) ، و« لسان العرب» (شَطَنَ ١٣ : ١٣٩) . عكاه : شدَّه بالوثاق وقَيَّدهُ .

أَيُّمَا شاطِنٍ عَصَاهُ عَكَاهُ ثُمَّ يُلْقَى فِي السِّجْنِ والأَغْلَالِ

« أَيُّمَا شاطِنٍ » : أي أيُّمَا بعيد ، فالشطنُ البعدُ ، ويقال أيضًا لبعض الحيوانات : إنها شيطانٌ ، وذلك باعتبار البُعْدِ إمَّا عن أجناسِها ، وإمَّا عن الخيرِ ، فلقــد ثبت في «صحيح مسلم » [1] من حديث أبي ذر أن النبي ﷺ ، قال : « الكلبُ الأسودُ شَيْطَانٌ » ، وجاء أن النبي ﷺ رأى مَنْ يتبعُ حمامَةً فقال : « شَيْطَانٌ يتبعُ شَيْطَانَةً »[2]، وثَبَتَ من حديث ابنِ وَهْبٍ – رحمه الله – بإسناد صحيح ، أن عمرَ –رضي الله عنه – جيء له بِبِرْذَوْنٍ فَرَكِبَهُ ، فرآهُ يَتَبَخْتَرُ فَنَهَرَهُ ، فلم يزلْ يتبخترُ في مِشْيَتِه ، فنــزلَ عنه عمرُ – رضــي الله عنه– وقال : « ما حملتموني إلا على شيطانٍ » [3].

---

(١) في (كتاب الصلاة –باب قدر ما يستر المصلي) (٥١٠) .

(٢) أخرجـــه « أبو داود » في «سننه » في (كتاب الأدب–بـــاب في اللعب بالحمّام) (٤٩٤٠)، من حديث «أبي هريرة » –رضي الله عنـــه– .

(٣) انظر « تفسير الطبري » (١ : ١٠٩)، و « تفسير ابن كثير » (١: ١١٥) وقال فيه : إسناده صحيح.

والبرذون من الخيل: ما ليس بعربي، وهو العظيم الخلقة الجافي . « تاج العروس » (برذن).

فإذن الشيطانُ في أصلِ اللغةِ يُطْلَقُ على مَنْ بَعُدَ عن الخير، أو بَعُدَ عَمَّا عليه أجناسُهُ .

وهـــذا هو المعنى العامُّ ، ونرجعُ بعده إلى المعنى الأخصِّ ، وهـــو أن الشيطانَ هو البعيدُ عن الخيرِ ، الموصوفُ بالشرِّ ، وقد يكونُ الشيطانُ بعيدًا عن الخيرِ بالأصالةِ كإبليسَ ، ومَنْ تَـــبِعَهُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ، وقد يكونُ بالتأثُّرِ لا بالأصالةِ ، وهو مَنْ صـــارَ شيطانًا من الإنس ، ولهذا أَمَرَ اللهُ - جلَّ وعلا - في الاستعاذةِ أن يستعيذَ المرءُ مِنْ نَزَغَاتِ الشياطينِ ، قال - جلَّ وعلا- : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [1] ، وهذا في عدد من الآيات .

إذن فالعـــبدُ بحَاجَـــة عظيمة إلى أن يستعيذَ بالله -جلَّ وعـــلا- مـــن الشيطانِ ؛ لأنَّ الشيطانَ يكيدُ لابنِ آدمَ ب أنـــواعِ المكائد، يكيدُ لـــه في أن يُضِرَّ ببدنه ، وفي أن يُضِرَّ بقلبه ، وفي أنْ يُضِرَّ بأهله ، في أن يُضِرَّ بماله ، بأنواع ذلك ، والشـــيطانُ لا يُـــرَى ، وكيدُه إذا كان من الجنِّ لا يُرى ،

---

(١) انظر (الأعراف : ٢٠٠) .

وإذا كـان مـن الإنـسِ فـلهم كيدٌ بالمؤمن ، ولهم كيدٌ بـأعدائِهِمْ ، كذلـك لا يَعْصِمُ مِنْ هذا كلّه إلا اللهُ – جلّ وعلا – فإنه هو العاصمُ على الحقيقة ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾[1].



(١) (هود : ٤٣) .

معنى « الرّجيم » في لغة العرب :

وهــذا الشيطانُ نعته هاهنا بقوله : « الرّجيم » ، فاستعذْ بالله من الشيطان الرجيم ، ومعنى « الرّجيمِ » أي : المرجوم، (فعيلٌ) بمعنى (مفعولٍ) .

وأصــلُ الرجمِ في لغةِ العربِ هو الرميُ ، إمَّا بالأقوالِ ، وإمــا بالأفعال ، الــرميُ الذي يكونُ فيه أيضاً رميٌ بالقتل مثلاً ، أو بالظنِّ ، أوبالقول الذي هو مِنْ غيرِ دليلٍ عليه ولا بــرهان[1]، وهــذه كــلها جاءت في القرآن ، قال - جلّ وعــلا - : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ [2]، وقــال - جلّ وعلا - : ﴿ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ﴾ [3] ، يعني : رميًا بالغيب، وهذا من الأقوال ، ومنه أيضًا قولُ الشاعرِ :

.... وما هُوَ عَنْها بالحديثِ المُرَجَّمِ[4]

---

(١) انظر «المصباح المنير» (رجم) .

(٢) (مريم: ٤٦).

(٣) (الكهف: ٢٢).

(٤) هذا عجزُ بيت وصدرُه:

ومــا الحــربُ إلاّ ما علمتمُ وذُقْتُمُ ....

وهو من معلقة « زهير بن أبي سُلمى» . والبيت في « لسان العرب » (رجم ١٢: ٢٢٨) وفــيه « المــرجَّم بالتشديد، والرَّجْمُ: القَذْفُ بالغيب والظنّ» ، و « الدر المصون » (١: ١٢).

يعني : المظنونَ ، الذي لا دليل عليه.

أصـــلُ الكلامِ « من الشيطانِ الرجيمِ » ، يعني : المرمِيَّ المبعدَ عن الخيرِ ، (رجيم) بمعنى (مرجوم) ، يعني : رُمِيَ وأُبْعِدَ عنِ الخيْرِ .



اليقظة والحذر من وسوسة الشيطان الرجيم :

وإذا عرفـــتَ هذا الوصفَ للشيطانِ على هذا النحوِ وأنهُ بعـــيدٌ جدًّا عن الخيرِ ، وأنَّ العبدَ الذي يستعيذُ باللهِ ، ويقرأُ هـــذه السورةَ العظيمةَ ، ويفتتحُ القرآنَ بأنه راغبٌ في الخيرِ ، مقبلٌ عليه ، فليكنْ إذن حَذِرًا مِنْ هَذَا الشيطانِ الذي وُصِفَ بأنَّهُ مَرْجُومٌ مَرْمِيٌّ بالبعدِ عن الخيرِ ، مَطْرُودٌ مِنْ رحمـــةِ الله - جلَّ وعلا - ، وهذا لاشكَّ أنه يتنوَّعُ بتنوعِ الناسِ ، فكلُّ أحـــدٍ من المؤمنينَ قد أصابَه - إلاَّ مَنْ سَلَّمَ اللهُ جلَّ وعلا - الشـــيطانُ بِـــنَوْعٍ منَ الإصابَةِ ، فالعبدُ حينَ يَقْرَأُ يَسْتَحْضِرُ ذلـــك ، ويَعْتَصِـــمُ ويَلْتَجِئُ باللهِ - جلَّ وعلا - ، ويطلبُ الـــتحرزَ من اللهِ -جلَّ وعلا - من هذا الشيطانِ الذي هو عـــدوُّه ، فعداوةُ الشيطانِ لابنِ آدمَ ماثلةٌ أمامَ العبدِ المؤمنِ دائمًـــا ، فـــإذا عَرَفَ ذلك كانت عنده قوةٌ تحميه وتحفظُه بفضـــلِ اللهِ -جلَّ وعلا- من نَزَغَاتِ الشياطينِ ، وذلك لأنه دائمُ الاستعاذةِ باللهِ - جلَّ وعلا- من الشيطانِ الرجيمِ .



﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

هل ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ آيةٌ ؟

قــال - سبحانَهُ - في أولِ القرآنِ : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، وهذه آيةٌ ، ولأهلِ العلمِ فيها أقوال [1] :

لكنَّ الصحيحَ أنَّها آيةٌ تُتْلَى في أوّلِ كلِّ سورةٍ للفصلِ بينَ السُّوَرِ، فهي آيةٌ من القرآنِ ، وليست آيةً من كلِّ سورةٍ ، إلا أنها بعضُ آيةٍ في سورةِ النَّمْلِ ، في قوله - تعالى- : ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [2] ، وليستْ آيةً من أولِ سورةِ براءة .



---

(١) انظـــر هـــذه المســـألة في « مجموع فتاوى ابن تيمية » (٢٢: ٤٣٨ — ٤٤٠) ، و«تفسير ابن كثير» (١: ١١٦— ١١٧)، و « نصب الراية » (١: ٣٢٣ — ٣٦٢). وقال «ابن الجزري » في « النشر في القراءات العشر » (١: ٢٧١) - بعد أن أورد خـــلاف العــــلماء في ذلك -: « وهذه الأقوال ترجع إلى النفي والإثبات، والذي نعتقده أن كليهما صحيح، وأن كلَّ ذلك حقٌّ، فيكون الاختلاف فيها كاختلاف القراءات... » . وهذا كلام رصين نفيس .

(٢) (النمل : ٣٠) .

معنى ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ :

اُفْتُـــتِحَ القرآنُ بها، و﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، هذه مِـــنْ أعظمِ ما أنعمَ اللهُ - جلَّ وعلا - على المؤمنينَ بعامَّةٍ ، مِـــن أتباعِ الرسلِ به ، لأنَّ فيها ، وبها من تحصيلِ الخيراتِ ما اللهُ -جلَّ وعلا- به عليمٌ .

والمعنى العامُّ لتفسير ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ . أن التالي يقول : أتلو القرآنَ مستعينًا بكلِّ اسمٍ من أسماءِ معبوديَ الحقِّ الله، الذي تسمّى بأنه الرحمنُ الرحيمُ ، والذي كَمُلَتْ له صفةُ الرحمة ، وعظمتْ له آثارُها، فهو يتلو ، ويقرأُ مستعينًا باللهِ - جلَّ وعلا- ، وبكلِّ اســـمٍ من أسماءِ الله - جلَّ وعلا - ، ومتوسِّلاً إلى اللهِ - جلَّ وعلا - بكلِّ اسمٍ من أسمائه .

وتلحظُ من هذا أنَّ العبدَ إذا عَظُمَتْ معرفتُهُ بأسماءِ الله - جلَّ وعلا - الحسنى ، وبصفاته العُلا ، فإنه يستحضرُ حين يقولُ هذا الكلامَ الأسماءَ العظيمةَ لله - جلَّ وعلا - وما هي آثارُها ، يعني : يستحضرُ آثارَها في ملكوتِ الله - جلَّ وعلا - ، فيَفيضُ على قلبهِ أنواعًا من العلمِ ، وأنواعًا

من المحبة ، وأنواعاً من حُسْنِ الظنِّ بالله ، وأنواعًا من التوكُّلِ على اللهِ -جلَّ وعلا- وكلُّ هذه تُنَاسِبُ المقصودَ في البداءةِ بـــ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، فهي عظيمةٌ جدًا .

❁ ❁ ❁

بيان متعلّق الجار والمجرور ﴿ بِسْمِ ﴾ :

قال العلماء : الجارُ والمجرورُ في ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ لا بدَّ أن يتعلق إمَّا بفعلٍ أو بمَصْدَرٍ أو بشيءٍ فيه معنى الفعلِ ، وقَدَّره بعضُ أهلِ العلمِ بمصدرٍ [١] ، يعني : (ابتدائي بسمِ الله) ، أو (تلاوتي بسم الله) ، وهذا لأنه جاءَ في القرآنِ تَعَلُّقُ الجارِّ والمجرور في ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ بالاسم ، وذلك في قوله - تعالى - : ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾[٢] فسَبْكُ الكلامِ ﴿ وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ فصارَ تَعَلُّقُ الجارِّ والمجرورِ هنا بالاسم .

وقال آخرون - وهو الأصح والأقوى - : إنه يتعلقُ بالفعلِ[٣] الذي يناسبُ المقصودَ ، فإذا بدأ التالي ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ في أوَّلِ التلاوةِ فيكونُ التقديرُ : (أَقْرَأُ بسمِ الله) ، كما كان

---

(١) هذا رأي البصريين .

(٢) (هود : ٤١) .

(٣) هذا رأي الكوفيين .

انظـــر تفصيل هذه المسألة في « تفسير الطبري » (١: ١١٢- ١١٦)، و« الدر المصون » (١ : ٢٢ – ٢٣) .

ذلك في أولِ ما أُنزلَ من القرآنِ، قال - جلّ وعلا- : ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [1] (اقْرَأْ بسمِ اللهِ) ، (أتْلُو بسمِ اللهِ) ، معنى ذلك : أتلو وأقرأ مستعينًا ومتوسلاً بكلِّ اسمٍ للهِ، جلّ وعلا .



(١) (العلق: ١) .

معنى ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ :

قال بعضُ أهلِ العلمِ : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ معناها : بالله ، ولكن هذا ليس بجيد ، بل الصوابُ أنه يدخل في ذلك جميعُ أسماءِ اللهِ - جلَّ وعلا - ؛ لأنه أَبْهَمَ الاسمَ ، فيصدقُ عـــلى قولِه : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ كلُّ أسماءِ الله - جلَّ وعلا - الحسنى ، وهذا له أثرٌ على نَفْسِ التالي ، فإنَّ من الناسِ مَنْ يستحضرُ مثلاً حين تلاوته بعضَ الأسماءِ ، ومن الناسِ مَنْ يستحضرُ مِنَ الأسماءِ الحسنى غيرَ ما استَحْضَرَهُ الأولُ ، وهذا كلُّه يفتحُ على القلبِ أنواعاً من العُبُوديَّاتِ ربَّما اختلفَ الناسُ فيها ، وهذا مِمَّا يُنَاسِبُ مقصودَهم ، ومما يناسبُ حالَهُمْ، فَمَثَلاً أنَّ التاليَ للقرآنِ ، وهو في كَرْبٍ ربَّمَا استحضرَ أسماءَ اللهِ - جلَّ وعلا - التي فيها تفريجٌ للكروب، يستحضرُها هو مِنْ دونِ قَصْدٍ لذلك ، تجدُ أنَّ المتعبِّدَ للهِ - جلَّ وعلا - الذي يَرْجُو رَحْمَتَهُ يستحضرُ الأسماءَ التي فيها أنواعَ الجمالِ للهِ - جلَّ وعلا - ، والذي هو مذنبٌ

يستحضرُ ما فيه جلالٌ للهِ - جلّ وعلا - وهذا يعم جميعَ الأسماءِ .

لهذا نقول : إن الصحيحَ أنّ قولَه هنا : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ أنه لا يُخَصُّ باسمٍ معيَّنٍ ، وليس تقديره (بالله) ، وليست كلمةُ (اسمٍ) مزيدةً لتأكيدِ الكلامِ ، وإنما المعنَى أتلو متوسِّلاً ، أو مستعينًا بكلّ اسمِ للهِ [1] ، جلّ وعلا .



(١) انظر « مدارج السالكين » (١ : ٨٩) .

معنى لفظ الجلالة (الله) :

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ (اللهُ) هنا الذي أُضيفَ الاسمُ إليه مما اختَلَفَتْ فيه عباراتُ القومِ ، وأنا أذكرُ التفصيلَ هنا؛ لأجل أهَمِّيَّتِه في الاعتقاد، وذلك أن المحققينَ من أهل العلمِ يقولون عن كلمة (الله) : هذه الكلمةُ هي أعظمُ أسماءِ اللهِ - جلَّ وعلا - ، ومعناها أنها عَلَمٌ على المعبودِ بِحَقٍّ ، إذِ الآلهةُ التي عُبِدَتْ مع الله - جلَّ وعلا - لم تُعْبَدْ بِحَقٍّ ، والمعبودُ بِحَقٍّ هو اللهُ - جلَّ وعلا - وحدَه دونَ مَا سِوَاه .

فإذن يكونُ لفظُ الجلالةِ هذا علمٌ على المعبودِ بِحَقٍّ [(١)] ، والصحيحُ أنه مشتقٌ ، وليس بجامد [(٢)] ، وأصله الإله ، وإنما خففتِ الهمزة فصارتْ (اللهُ) ؛ لكثرة الاستعمالِ في أوَّلِ حياةِ الناسِ ، لأجلِ أن الشِّرْكَ واتخاذَ الآلهةِ الأخرى حَادِثٌ بعد ذلك .

---

(١) انظر « الدر المصون » (١ : ٢٣) ، و « تفسير ابن كثير » (١ : ١٢٢) .

(٢) انظر « تفسير الطبري » (١: ١٢١)، و« الدر المصون » (١ : ٢٤) ، و« تفسير ابن كثير » (١: ١٢٣- ١٢٤)، و« التحرير والتنوير » (١: ١٦٣) .

وإذا كان أصلُها (الإلهُ) ، فوزنها : (فِعالٌ) بمعنى (مفعول) يعني : بمعنى (مألوه) ، مثلُ : (فِراش) بمعنى (مفروشٍ) ، و(وِطاءٍ) بمعنى (موطوءٍ) ، ونحو ذلك . ومجيء (فِعال) بمعنى (مفعول) كثير في اللغة ، كما هو معلومٌ .

و(مألوه) ، اسمٌ لِمَنْ أُلِهَ بحقٍّ ، من أَلِهَ يَأْلَهُ إلاهَةً وأُلوهَةً ، إذا عُبِدَ مع المحبةِ والرغبةِ والرجاءِ ، وهذا معناه في اللغةِ .

ومعنى (الإلاهَةِ) العبادةُ ، وليس معنى (الإلاهَةِ) الرُّبوبيةَ .

أو معنى (الإلاهَةِ) التصرفُ في الأمرِ ، ولهذا قرأَ ابنُ عباسٍ كما رُوي عنه مِنْ طُرُقٍ متنوعةٍ تفيدُ صِحَّةَ ما نُسِبَ إليه[1] في ذلكَ ، كان يقرأُ قولَهُ - تعالى - في سورة (الأعراف) [2] : (وَيذَرَكَ وإلاهَتَكَ) يعني : وعِبَادَتَكَ ؛ لأنه

---

(١) انظر « تفسير ابن كثير » (١ : ١٢٣) .

(٢) من الآية : ١٢٧ .

كانَ يُعبَدُ ولم يكنْ يَعْبُدُ ، ناظرًا في ذلك إلى قوله – تعالى – : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾[1] .

فـ(الإلاهَةُ) بمعنى العبادةِ ، ويَدُلُّ على ذلك قولُ الشاعرِ[2] في رجزه المشهور :

لله دَرُّ الغَانيَات المُدَّه
سبَّحْنَ واسْتَرْجَعْنَ منْ تألُّهي

يعني: من عبادتي .

فإذن لفظ (الله) يَفْهَمُ منهُ السَّامِعُ معنى العبادةِ الحقَّةِ للمستحقِ للعبادةِ الحقةِ ، فلا يأتي في البالِ معنى الرُّبوبية بالمطابَقَةِ ، وإنما الذي لـه الإلاهةُ الحقةُ يستحقُ العبادةَ دون ما سواه ، لاشك أنه يتضمنُ أنه هو ذو الرُّبوبية ، وهو المستحقُّ للرُّبوبية ؛ لأنه لا يستحق العبادةَ وحدَه دون ما سواهُ إلا مَنْ كان بيدِه ملكوتُ كلِّ شيءٍ ، ولهذا تَجِدُ في

---

(١) (القصص : ٣٨) .

(٢) هو « رؤبة »، و (المُدَّه) جمع (الماده) وهو المادح .

وانظر الرجز في « المحتسب » (١: ٢٥٦)، و« لسان العرب » (أله ١٣: ٤٦٩)، و« تفسير ابن كثير » (١: ١٢٣) ، و« الدر المصون » (١: ٢٥) .

القرآنِ كثيرًا ما يُحتَجُّ به على المشركينَ في إنكارِهم لتوحيدِ الإلهية، بإقرارِهِمْ بتوحيدِ الرُّبوبيةِ ، كما سيأتي تفصيلُه .

إذن قـــولُ القـــائل : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ يُنْظَرُ هنا إلى أنَّ هذه الأسماءَ هي للمعبودِ بحقٍّ ، فَتَنْخَلِعُ عندَ ذلكَ من قلبِ القائلِ كلُّ الأسماءِ التي سُمِّيَ بها الآلهةُ الباطلةُ ، ويبقى القلبُ خالصًا في تَوَجُّهِــه ، وفي ابتدائه للتلاوة لله - جلَّ وعلا - وحدَه دون ما سِوَاهُ .



معنى ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ :

(الرحمنِ الرحيمِ) ، نعتانِ للفظِ الجلالة ، (الرحمنِ) النعت الأول ، و(الرحيم) النعت الثاني ، وقد يكون (الرحيمِ) نعتًا لـــ (الرحمنِ) ، باعتبار أن (الرحمنِ) دالٌّ على الذات المتصفة بـــ (الرحمنِ) .

(الرحمنِ الرحيمِ) اسمان من أسماءِ اللهِ - جلَّ وعلا - الحسنى ، متضمِّنانِ صفةَ الرحمةِ للهِ - جلَّ وعلا - و(الرحمنِ) أعمُّ وأشملُ وأبلغُ من (الرحيم).

(الرحمن) صيغة مبالغة من الرحمة ، وهي أعظمُ مبالغةً، وأوسعُ شمولاً ، وأبعدُ أثرًا ومتعلَّقاً من (الرحيم) ، ولهذا قال بعضهم : إنَّ (الرحمن) هو رحمنُ الدنيا والآخرةِ ، وإنَّ (الرحيم) هو رحيمُ الآخرةِ [1] .

---

(١) انظر « تفسير ابن كثير » (١: ١٢٤). وقيل: هو رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا والآخرة، فقد أخرج « الحاكم » في « المستدرك » في (كتاب الدعاء- دعاء قضاء الدين) (١:٥١٤) (١٩٤١) من حديث عائشـــة -رضي الله عنها- عن أبي بكر -رضي الله عنـــه- عن النبي ﷺ : « اللهم فارجَ الهمِّ، كاشــفَ الغمِّ، مجيبَ دعوة المضطرين ، رحمنَ الدنيا والآخرةِ ورحيمَهما، أنت ترحمُني برحمةٍ تُغنني بها عن رحمةِ من سواكَ » .

لكن نقولُ : إنَّ الصحيحَ أنَّ بينهما فرْقاً [1] ، وأن (الرحمن) هو أعمُّ وأشملُ ، وأن (الرحيم) خاصٌّ ، ويعني : ذا الرحمةِ الخاصَّةِ . ورحمةُ الله - جلَّ وعلا - الخاصةُ إنما هي بالمؤمنينَ ، وأما رحمتُه العامـــةُ فتشمل كلَّ شيءٍ ، كما قال - تعالى - : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [2] ، فكلُّ شيءٍ وَسِعَتْه رحمةُ الله ، قال - تعالى - : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [3] .

فقولُ القائلِ : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ يَنْعَتُ اللهَ -جلَّ وعلا - مُثْنيًا عليه بهذا الاسمِ المتضمِّنِ لصفةِ الرحمةِ ، التي هي موصوفةٌ بأعظمِ الأثَرِ والمتعلق ، والتي شملتْ كلَّ شيءٍ ،

---

(1) انظر « تفسير الطبري » (١ : ١٢٥)، و « الدر المصون » (١ : ٣٠) ، و« تفسير ابن كثير» (١: ١٢٤) .

(2) (الأعراف : ١٥٦) .

(3) (غافر : ٧) . أخرج « البخاري » في « صحيحه » في أول (كتاب بدء الخلق) (٣١٩٤) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه- قال: قال رسولُ الله ﷺ: « لَمَّا قَضَى اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ في كتابه فهو عنده فوق العرش: إنَّ رحمتي غلبتْ غضبي » ، وأخرجه « مسلم » في « صحيحه » في (كتاب التوبة -باب في سعة رحمة الله تعالى ، وأنها تغلب غضبه) (٢٧٥١).

فهي تعرضُ لأن يكونَ العبدُ مشمولاً بهذه الرحمة العامَّة ، وهو يحتاجُ مع ذلك إلى الرحمةِ الخاصَّةِ ، ولهذا نُعتَ اللهُ - جلَّ وعلا - بقوله : (الرحيم) .

ولا شكَّ أن هذا من تعليمِ اللهِ -جلَّ وعلا - لعبادِهِ ، وهذا من رحمة الله - جلَّ وعلا - بعباده ، أن بدأ كَلامَهُ بهذه البسملةِ التي حاجةُ العبادِ إليها ، واللهُ - جلَّ وعلا - غَنِيٌّ عن ذلك ، لكنَّه يُحبُّ أنْ يُمَجِّدَهُ عَبْدُهُ ، ويحبُّ أنْ يُثْنِيَ عليه عبدُه ، وأن يَلْهَجَ لسانُه وفعلُه بتمجيدِهِ والثناءِ عليه ، سبحانَه .



فوائد ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ :

تلحظُ مما تقدّم ذكرُه أنك إذا رَدَّدْتَ هذه الكلمةَ العظيمةَ : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، وهذه الآيةَ فإنه ينفتحُ لقلبكَ أنواعٌ من العبوديّاتِ لله - جلّ وعلا - لم تكن تُدْرِكُهَا من دون العلمِ بمعاني أسماءِ اللهِ - جلّ وعلا - الحُسْنَى، وأسرارِ هذا التركيبِ المجتمعِ معنا .

فقوله : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لاحِظْ أن فيها بعدَ الاستعاذةِ تحريزًا [1] للنفسِ من الخوفِ ، أليس كذلك ؟.

وقوله : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فيها فتحٌ في النفسِ في أبوابِ الرجاء في الله - جلّ وعلا - ، ومحبةِ الله -جلّ وعلا- وتفويضِ الأمرِ إليه ، واعتقادُ أنّ اللهَ - جلّ وعلا - هو الذي يُوَفِّقُ ، وهو الذي يَهْدي ، وهو الذي يُبارِكُ فيما يَقْرَأُ العبدُ، وفيما يَتْلُوهُ، وفيما يَأْكُلُهُ ، وفيما يشربُهُ ، وفي كلِّ أمرِه .

---

(١) مِــنْ تَحَــرَّزَ بمعنى تَحَفَّظَ . ومنه قولُهم : « أحْرَزَ قَصَبَ السبقِ » إذا سَبَقَ إليها فَضَمَّهَا دونَ غيرِه . « المصباح المنير » (الحِرْزُ) .

فانفتحَ إذن للقلبِ بابان : البابُ الأول بابُ الخوفِ ، والباب الثاني بابُ الرجاءِ في اللهِ - جلَّ وعلا - وحسنِ التوكُّلِ عليهِ ، وتفويضِ الأمرِ إليه، جلَّ وعلا .



معنى ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أولُ آيةٍ في سورةِ الفاتحة فيها ثناءٌ على اللهِ بحمدِهِ .

وكما مرَّ معنا في حديثِ أبي هريرة ، الذي رواه مسلم في الصحيح[1] : أنَّ العبدَ إذا قال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، قال اللهُ - جلَّ وعلا - : حَمِدَنِي عَبْدِي [2] .

❁ ❁ ❁

---

(١) تقدم تخريجه ص (٧) .

(٢) قال « ابن تيمية » - رحمه الله - في « مجموع الفتاوى » (١٤: ٨): « فقد ثبت بهذا النصِّ أنَّ هذه السورة منقسمة بين الله وبين عبده ، وأن هاتين الكلمتين مقتسم السورة ، فـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ مع ما قبله لله، و ﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ مع ما بعده للعبد وله ما سأل . ولهذا قال مَنْ قال من السلف : نصفها ثناءٌ ، ونصفها مسألةٌ ، وكلٌّ واحد من العبادة والاستعانة دعاء » .

معنى « الحمد » :

الحمـــدُ : هو الثناءُ عن محبةٍ على المحمودِ ، فإنْ كان الثناءُ عــن غــير محــبةٍ سُمِّيَ مَدْحًا ، والله -جلَّ وعلا- ممدوحٌ ومحمــودٌ، وحَمْدُهُ أعظمُ من مدحِه - جلَّ وعلا - ؛ لأنَّ المدحَ قد يكون عن غيرِ محبةٍ ، أما الحمدُ فهو ثناءٌ بأوصافِ الكمالِ على المحمودِ المحبوبِ ، ولهذا سيأتي أنواع الثناء .

إذن فـ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ معناها : كلُّ أجناسِ المحامدِ ، وكُلُّ أنواعِ الثناءِ مستحقةٌ للهِ المعبودِ بحقٍّ ، الذي هو (ربُّ العالمينَ) ، المُتَصَرِّفُ في العالمينَ في أجناسِ العوالِمِ ، في البرِّ والبحرِ ، وفي الأرضِ والسماءِ ، ما عَلِمْنَا ومَا لم نَعْلَمْ ، ما رَأَيْنَا وما لم نَرَه ، وما سَمِعْنَا وما لم نسمعْهُ ، فكلُّ ثناءٍ مستحقٌّ لله - جلَّ وعلا - الذي له الرُّبوبيةُ الكاملةُ على خلقِه أجمعينَ .

(الحمدُ) هذه مكوَّنةٌ من كلمتينِ : (ألْ) مع (حَمْد) .

و(أل) هذه قال العلماء [1] : إنها لاستغراقِ الأجناسِ ، ومعنى ذلك أن قولَكَ : (الحمدُ) معناه كلُّ أنواعِ وأجناسِ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

فما هيَ أجناسُ وأنواعُ الحَمْدِ التي يَستحقُّهَا اللهُ ، جلّ وعلا ؟

هذه أنواعٌ كثيرةٌ لكن جِماعُهَا خمسةٌ ، لو استحضَرَهَا العبدُ، أو استحضَرَ واحدًا منها كُلَّ مَرَّةٍ وهو يقرأُ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لَفُتِحَ لــه أنواعٌ وأبوابٌ من محبةِ اللهِ ، ومِنْ تَمْجيدِه وتَعْظيمه وحُسْنِ الثناءِ عَلَيْه ، ولَفُتِحَ لــه علومٌ وعباداتٌ قلبيةٌ لا يَعْلَمُهَا إلاَّ مَنْ عَاشَهَا وعَرَفَهَا .

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر « تفسير الطبري » (١ : ١٣٨) ، و« الدر المصون » (١: ٣٧) ، و« تفسير ابن كثير » (١ : ١٣١) .

أنواع المحامد لله - جل وعلا - خمسة :

إن أنواعَ المحامدِ للهِ - جلَّ وعلا - خمسةُ أنواعٍ :

النوع الأول : أنه - جلَّ وعلا - محمودٌ على أنه واحدٌ في رُبُوبِيَّتِه ، وأنَّهُ هو الرَّبُّ المَالكُ ، السيِّدُ المُتَصَرِّفُ في هذا المَلَكُوتِ بأجمَعِه، لا ربَّ لهذا المَلَكُوتِ بأجمَعِه غيرُ اللهِ - جلَّ وعلا - فتثني على اللهِ - جلَّ وعلا - بهذا الوصفِ ، الذي هو أنه - جلَّ وعلا - ربُّ هذا المَلكوتِ جميعًا ، وأنه ربُّ العالمينَ ، ربُّ جميعِ الأصنافِ .

قال - جلَّ وعلا - : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ (١) ، وقال - جلَّ وعلا - : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ (٢) فهذا كلُّه مِنْ حَمْدِ اللهِ - جلَّ وعلا - لمعاني الرُّبوبية .

وعليك أنْ تَستَحْضِرَ معانيَ الرُّبوبية ، وآثارَها في الخَلْقِ ، وأن تستحضرَ معانيَ ربوبيتهِ - جلَّ وعلا - بأنواعِها من

---

(١) من آخر آية من سورة الإسراء .

(٢) من أول آية من سورة فاطر .

تصرفِهِ ، وإفاضَتِهِ للخير ، وحبسِهِ عن الشرِّ ، وتَلَطُّفِهِ بالعبادِ، ورَحْمَتِهِ بهم .

وأن تستحضِرَ أنواعَ آثارِ ربوبيةِ اللهِ - جلَّ وعلا - في خَلْقِهِ، وكلُّها يَسْتَحِقُّ عليها - جلَّ وعلا - أعظمَ الثناءِ على وجهِ الكمالِ .

النوعُ الثاني : أنَّ اللهَ - جلَّ وعلا - محمودٌ على أنه مستحقٌّ للإلاهيَّةِ وحدَه دونَ ما سِوَاهُ ، يعني : أنَّه محمودٌ مُوَحَّدٌ في إلاهيَّتِهِ - جلَّ وعلا - ، فاللهُ - جلَّ وعلا - هو الإلهُ الحقُّ المُبينُ ، وما عَدَاهُ من الآلِهَةِ فإنَّما عبادَتُهَا بالبَغْيِ والظُّلْمِ والعُدْوَانِ .

فهُوَ الذي يَسْتَحِقُّ أنْ يَعْبُدَهُ العِبَادُ ، وأنْ يَذِلُّوا له ، وأنْ يُحِبُّوهُ ، وأنْ يَرْجُوه وأن يَخافُوه ، وأنْ يُحْسِنُوا الظَّنَّ به ، وأنْ يَتَوَكَّلُوا عليه ، وأنْ يَسْتَعِينُوا به ، وأنْ يستعيذُوا به ، وأن يَسْتَغِيثُوا به ، وأن يَنْحَرُوا له ، وأنْ يُصَلُّوا له ، كلُّ ذلك له وحدَه - جلَّ وعلا - فتُثْني على اللهِ - جلَّ وعلا - بأنه هو الذي يستحقُّ هذه الأمورَ من العبادِ بأجمَعِهِمْ على اختلافِ أنواعِهِمْ ، مِمَّنْ في البَرِّ ، ومِمنْ في البحرِ ، وممن في الجوِّ ،

كلُّهم يُسبِّحُونَ اللهَ - جلَّ وعلا - . ويُثْنُونَ عليه ويعبدونَهُ وحدَه دونَ ما سِوَاه ، أما الناسُ فإنَّ الذين يعبدونَهُ دون ما سِوَاه كثيرٌ منهم ، وكثير .

النوع الثالث : أنَّ اللهَ - جلَّ وعلا - محمودٌ على أنه ذو الأسماءِ الحُسْنَى والصفاتِ العُلا ، يعني : أنه مُثْنًى عليه بأنه الذي لـه الأسماءُ الحُسْنَى التي بلغتْ في الحُسْنِ نهَايته ، ومحمودٌ مُثْنًى عليه بأنه الذي لـه الصفاتُ العُلا ، والصفاتُ الكاملةُ ، فله من الصفاتِ أكْمَلُها ، وله من كلِّ صفةٍ كاملةٍ أكملُ تلكَ الصفةِ ، ليس له - جلَّ وعلا - النقصُ ، والشرُّ ليس إليه ، بل هو - جلَّ وعلا - الكاملُ في أسمائه وصفاته.

وأسمـــاؤُه وصفاتُه لها آثارٌ في خَلْقه عظيمةٌ ، يَسَبِّحُ القلبُ فيها بأنواعٍ من الثناءِ على اللهِ ، جلَّ وعلا .

فإذا تأملتَ وصفَ اللهِ - جلَّ وعلا - ، أو اسمَ اللهِ الغفورِ ، نظرتَ في آثارِ مغفرةِ اللهِ - جلَّ وعلا - لعبادِهِ .

وإذا تأملـــت في اسمِ اللهِ (الرحيمِ) نظرتَ في آثارِ رحمةِ اللهِ - جلَّ وعلا - التي أفاضَها على عِبَادِهِ .

وإذا نظرتَ في اسمِ اللهِ (العزيزِ) نظرتَ في عِزَّةِ اللهِ - جلَّ وعلا - ، وكيفَ جَعَلَ العِزَّةَ له ولكتابِهِ ولرسولِهِ وللمؤمنينَ .

إذا نظرتَ إلى أسماءِ اللهِ تَرَى أنَّ كلَّ اسمٍ له أَثَرُهُ في هذه الحياةِ ، له أثرٌ في ملكوتِ اللهِ - جلَّ وعلا - لاشكَّ .

وهذا إذا تأمَّلَهُ العبدُ وعَلِمَ هذه المعاني للأسماءِ والصفاتِ سوف يَلْهَجُ بثناءٍ على اللهِ عن محبة - الثناءُ الذي هو الحمدُ - بشيءٍ لم يُثْنِ على اللهِ - جلَّ وعلا - به مَنْ جَهِلَ تلك المعاني العظيمة .

ولهذا كان أحبُّ الكلامِ إلى اللهِ - جلَّ وعلا - تَنْزِيهَهُ عن النقائصِ ، وإثباتَ أوصافِ الكمالِ له - جلَّ وعلا - ، كما جاءَ في آخرِ حديثٍ في « صحيحِ البخاريِّ » [1] أنَّ النبيَ ﷺ قال : « كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إلى الرحمنِ ، خَفِيفَتَانِ على اللسانِ، ثَقِيلَتَانِ في الميزانِ ، سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ ، سُبْحَانَ اللهِ

---

(١) في «كتاب التوحيد » (٧٥٦٣) ، وانظر (٦٤٠٦) ، (٦٦٨٢) ، (٧٥٦٣) من حديث أبي هريرة ، رضي الله عنه . وانظر « فتح الباري » (١٣: ٥٤٠) .

العظيمِ » شَمِلَ التسبيحَ ، والحمدَ ، وهما مِن أعظمِ ما يكونُ من الكلامِ في هذا الوجود .

النوع الرابع : أنَّ اللهَ - عزَّ وجلَّ - محمودٌ على إنزالِهِ الكتابَ العظيمَ ، قال - جلَّ وعلا - : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ [1] ، وهو محمودٌ على كلِّ أمرٍ في القرآنِ ، وعلى كلِّ نهيٍ ، محمودٌ مُثْنًى عليه به ؛ لأن أوامرَ الله - جلَّ وعلا - فيها مَحَبَّتُهُ ، يعني : يُحِبُّها ، ويحبُّ اجتنابَ نَوَاهيه ، جلَّ وعلا . فأوامرُهُ ونَوَاهيه محبوبةٌ له - جلَّ وعلا - امتثالاً في الأوامرِ ، واجتنابًا للنواهي ، فهو يُثْني على اللهِ - جلَّ وعلا - بإنزالِهِ الكتابَ لهدايةِ الناسِ ، بهذهِ الأوامرِ التي بها صلاحُ الناسِ في جميعِ ما شَرَعَ ، سواءٌ في أحكامِ العباداتِ ، أو في أحكامِ المعاملاتِ ، وسواءٌ فيما يخصُّ الفردَ أو ما يخصُّ الجماعةَ ، وسواءٌ في ذلك الأحكامُ العملية ، أو الأحكامُ الخبريةُ ، يعني : في أمورِ العقائدِ ، كلُّ ذلكَ يُثْنَى على اللهِ - جلَّ وعلا - به ، ومَنْ

---

(١) أولُ آيةٍ من سورة الكهف .

يعلمْ هذه المعاني حينَ يقرأ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾[1] ، يعلمْ معنى الثناءِ على اللهِ - جلَّ وعلا - بإنزالِه الكتابَ ، وأنه - جلَّ وعلا - مُثْنًى عليه بهذه المِنَّةِ العظيمةِ على عبادِه .

النوع الخامس والأخيرُ : أنَّ اللهَ - جلَّ وعلا - محمودٌ ، يعني : مُثْنًى عليه بما أمر به أمرًا كونيًّا ، وما قَضَى به قضاءً كونيًّا ، وما قَدَّرَهُ على عباده ، وهذا يدخل فيه النِّعَمُ ؛ لأنها مِمَّا جعلَه اللهُ - جلَّ وعلا - مِنَّةَ أمورِه وأوامِره الكونيَّةِ ، هذا هو الذي يستحضرُه العامةُ ، أو كثيرٌ من الناسِ ، حينما يقول : (الحمدُ لله) يستحضرُ معنى الثناءِ على اللهِ بهذه النعمةِ ، وهذا فردٌ من أفرادٍ كثيرةٍ ، ونوعٌ من أنواعٍ عديدةٍ ، من محامدِ اللهِ ، جلَّ وعلا .

إذن، أنواعُ محامدِ اللهِ - جلَّ وعلا - كثيرةٌ لا تُحصى ، وقلبُ المؤمنِ لا يمكنُ أن يستحملَها جميعًا ، فَحَسَنٌ أن يُعَوِّدَ العبدُ المؤمنُ نفسَه أنْ يستحضرَ واحدًا من أنواع المحامد ،

---

(1) (الكهف : 1) .

وهو يحمَدُ اللهَ – جلَّ وعلا – في الصلاة ، و يحْمَدُه – جلَّ وعلا – في أدبارِ الصلواتِ ، وأنْ يستحضرَ واحدًا ويتأملَه، الحمـــدُ للهِ ، الحمدُ للهِ ، الحمدُ للهِ ، يعني : في الأذكارِ بعد الصـــلواتِ يستحضرُ هذا المعنى ، ويستحضرُ مثلاً أنه –جلَّ وعلا – محمودٌ على ربوبيَّتِه وآثارِ الرُّبوبيةِ في خَلْقِه ، ومعاني الرُّبوبـــيةِ ، ثم في الصلاة الأخرى يحمدُه على المعنى الثاني ، وهكـــذا حتى يُعَوِّدَ نفسَه وقلبَه على أن يُثْنِيَ على اللهِ – جلَّ وعلا – بأنواع المحامد .

ولهذا جاء في حديث الشفاعة الطويلِ المشهورِ أن النبي – عليه الصلاة والسلام – يقولُ : « فأنْطَلِقُ فآتي تحتَ العرشِ ، فأَقَعُ ساجدًا لربِّي – عزَّ وجلَّ – ثم يَفْتَحُ اللهُ عليَّ من محامدِه وحُسْنِ الثناءِ عليه شيئًا لم يَفْتَحْهُ على أحدٍ قبلي.. »[1] لاحظْ قولَه ﷺ : « ثم يفتحُ اللهُ عليَّ من محامده

(١) أخرجه « البخاريُّ » في « صحيحه » في (كتاب التفسير –بابٌ : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾) (٤٧١٢) ، من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – ، و «مسلمٌ » في «صحيحه » في (كتاب الإيمان – بابُ أدنى أهلِ الجنة منـــزلةً فيها) (١٩٣) ، برواية « فأحمد ربي – تعالى – بتحميدٍ يُعَلِّمُنيه ربِّي – عزَّ وجلَّ – ثم أشفَعُ .. » من حديث أنس ، رضي الله عنه . وانظر (١٩٤) .

وحُسْنِ الثناء عليه شيئًا لم يَفْتَحْهُ على أحدٍ قبلي » ، وهو - عليه الصلاة والسلام - أعلمُ الخلقِ بربِّه ، وأحسنُهُمْ ثناءً عليه ، وأبلغُهُمْ وصفًا له ، وحمدًا له - جلَّ وعلا - ، ومع ذلك يفتحُ عليه أنواعًا من المحامد لله ؛ لأن حَمْدَ اللهِ - جلَّ وعلا - لا يَبْلُغُهُ الحامِدُونَ مَهْمَا أُوتوا .

وهذا لا شكَّ مما يَجْعَلُ قَلْبَ المؤمنِ يلينُ تعظيماً للهِ ، وثناءً على اللهِ ومحبةً وإجلالاً له .

ثم يقال : « يقولُ الله -جلَّ وعلا - : يا محمدُ ارْفَعْ رأسَك ، وسَلْ تُعْطَهْ ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ » .

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، هذه أنواعُ المَحَامِدِ الخمسةِ ، يعني كلَّ أنواعِ المحامدِ ، وكلَّ أجناسِ المحامدِ للهِ .

❁ ❁ ❁

معنى (لله) :

معناها : أنها مستحقةٌ لله ، وذلك أن (اللام) في قوله : (لله) ، هي لامُ الاستحقاقِ ، ومعنى الاستحقاقِ هاهنا الملكُ ، فالله - جلَّ وعلا - هو مالكُ المَحَامِدِ ، وكذلكَ هو مستحقُّها - جلَّ وعلا - ، لا يَسْتَحِقُّها على هذا الوجه إلا هو ، جلَّ وعلا .

وأما الخلقُ فقد يستحقُّ نوعًا من أنواعِ المحامدِ ، قد يستحقُّ فردٌ من الأفرادِ نوعًا من هذه الأنواعِ ، لكنَّها على هذا الوجهِ العظيمِ مستحقةٌ لله - جلَّ وعلا - وحدَه .
(اللام) غالبًا إذا أتى قبلها أعيانٌ فتكونُ (لامَ الملكِ) ، وإذا أتى قبلها معانٍ فتكون (لام الاستحقاق) ، مثلاً تقول : (الكتابُ لفلانٍ) هذه (لامُ الملك) ؛ لأن ما قبلها عينٌ ، فإذا كان ما قبلها معنًى صارتْ (لامَ الاستحقاقِ) كما يقال : (الفخرُ لفلانٍ) و(الكبرياءُ للهِ) .
فـ (الحمد لله) يعني : المستحق للهِ .



معنى ﴿ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ :

﴿ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لاحظْ هنا ، أنه فَرَّقَ بين الرُّبوبيةِ والألوهيةِ ، فنعتَ المعبودَ بالحقِّ بأنه (ربُّ العالمينَ) ، وفي هذا أعظمُ دليلٍ على أن الرُّبوبيةَ ليستْ هي الألوهيةَ ، وأن الرُّبوبيةَ لها معنى ، وأن الألوهيةَ لها معنى ، وهذا بمقتضى اللغةِ .

❁ ❁ ❁

معنى « الرب » في اللغة :

(الربُّ) في اللغة : هو المتصرِّفُ في الملكوتِ ، المتصرِّفُ في ملكِهِ ، السيِّدُ المُطَاعُ في أمرِه ، وربُّوبيةُ اللهِ - جلَّ وعلا - للعالمينَ ظاهرةٌ ، ذلك أنه - جلَّ وعلا - هو المتصرفُ في هذا الملكوتِ ، وهو المدبِّرُ لــه ، وهو الذي ينفذ أمرُه في هذا ، لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، ولا رادَّ لقضائه ، ولا يُراجَعُ - جلَّ وعلا - في أمرِهِ في كونِهِ ؛ وبهذا نَعْلَمُ غَلَطَ المبتدعة من الأشاعرةِ ، ونحوِهم ، الذين فَسَّرُوا الألوهيةَ بأنَّها الرُّبوبيةُ ، كما قال المتكلمة ، يقولون : إن (الإلهَ) هو القادرُ على الاختراعِ ، وإن (اللهَ) عَلَمٌ على القادرِ على الاختراعِ .

القدرةُ على الاختراعِ هذه من معاني الرُّبوبيةِ ، ليست من معاني الألوهيةِ ، لا باللغةِ ولا بالعُرْفِ الخاصِّ بالعربِ ، ولهذا قال « السنوسيُّ » في عقيدتِهِ المعروفةِ بـــ (أمِّ البراهينِ) - أبعدَنا الله جلَّ وعلا عنهم ، وعن بِدَعِهِمْ وأقوالِهم ومخالفتِهم وضَلالاتِهم- في تفسير (الإله) : فـــ (الإله) هو المستغني عمَّا سواهُ ، المفتقرُ إليه كلُّ ما عداه .

قال : فمعنى (لا إلهَ إلا اللهُ) لا مستغْنِيًا عما سواهُ ولا مفتقِرًا إليه كل ما عداه إلا اللهُ .

فمعنى هذا أنه فَسَّرَ الرُّبوبيةَ بالألوهيَّةِ ، وهذه الآيةُ رَدٌّ عليهم ، وتفسيرُ الألوهيةِ بالرُّبوبية أعظمُ ما يدخلُ منه إلى أن المشركينَ في العبادة ليسُوا بكُفَّارٍ ، لأنهم لم يُنكِرُوا الرُّبوبيةَ ، لأنهم يُقِرُّونَ بأن اللهَ هو القادرُ على الاختراعِ ، وهو المستغني عما سِواه ، وهو المُفْتَقِرُ إليه كلُّ ما عداهُ .

فكيف ، يكونون كفارًا ؟!

وتفسير الإلاهية بمعنى العبادة ينقضُ هذا الأصلَ من أساسِه ، ولهذا ففي هذه الآيةِ دليلٌ ظاهرٌ على التفريقِ بين الألوهيةِ والرُّبوبيةِ .



معنى ﴿ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ :

﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (ربٌّ) نعتٌ للفظِ الجلالة ، و(العالمينَ) جمعُ تصحيحٍ لـ (العالَم) ، و(العالَمُ) جمعٌ أيضًا لا واحد له من لفظه ، و(العالَم) جنسٌ تحته أنواعٌ مختلفةٌ ، كما قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله تعالى - في ثلاثة الأصول : « وكل ما سوى اللهِ عالَمٌ ، وأنا واحدٌ من ذلك العالَمِ » .

فالعوالمُ كثيرةٌ : عالمُ الإنسِ ، وعالمُ الجنِّ ، وعالمُ الملائكةِ ، وعالمُ الطيرِ ، وعالمُ الدوَابِّ ، وعالمُ النبات ، وعالمُ الهواءِ ، العوالمُ مختلفةٌ ، وسميت عالمًا ؛ لأن بها عَلْمَ أحقيّةِ مَنْ أَوْجَدَهَا بالرُّبوبية الكاملَة ، وبأنه المعبود بالحقِّ .

فـإذن ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يعني : أجناسَ هذه العوالمِ المختلفةَ ما عُلِمَتْ منه وما لم تُعْلَم ، كلُّ ما سوى الله عالَمٌ وأنـت واحـدٌ من هذا العالمِ ، فيدخلُ في الرُّبوبيةِ كلُّ ما سوى اللهِ - جلَّ وعلا - من العرشِ فما دونه .

وهذا معنى هذه الآية ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، فصار إذن معناها بعد هذا التفصيل : كلُّ أنواعِ المحامدِ ،

وكلُّ أجناسِ الثناء مستحقٌّ للهِ ، المعبودِ بحقٍّ ، الذي لــه التصرُّفُ ، والذي أمرُه نافذٌ في جميعِ العوالِمِ كلِّها ، وهي كلُّ ما سوى الله - جلَّ وعلا - . وهذا لا شكَّ يفتحُ أنواعًا من سَعة القلب لِتَحَمُّلِ هذه الأمورِ .

لاحَظَ بعض العلماء هنا في معنى ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ معنى التربيةِ ، والله - جلَّ وعلا - هو الذي ربَّى العالمينَ بنِعَمِه ، ربَّى العالمينَ بتدرُّجِهِم في الخَلْقِ .

وأصلُ (الربِّ) - كما ذكرتُ لك - أَصْلُ التربيةِ ، وهي التدريجُ ، يقال : ربَّاهُ يعني : درَّجَهُ في مراقِي الكمالِ المناسبِ له .

و(الربُّ) الذي هو السيِّدُ المطاعُ المتصرِّفُ ، الذي يُرَقِّي مَنْ دونه ، أو يدرِّجُهُم فيما يَصْلُحُونَ له ، وذلك لحاجَتِه إلى ذلك ، أما الله - جلَّ وعلا - فليس محتاجًا إلى أحدٍ ، بل الخلقُ جميعاً محتاجونَ إليه في كل أمورِهم ، ولو استغنى مُستَغْنٍ عن اللهِ طرفةَ عينٍ لَهَلَكَ من ساعَتِه .

أسألُ الله - جلَّ وعلا - أن يجعلنا من العالمينَ بكتابِه .

❁ ❁ ❁

الحِكَم التي يجنيها العبد من الاستعاذة والبسملة، و﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ :

قال العلماءُ عن هذه الآيةِ : إنها تَفْتَحُ بابَ المحبةِ للهِ ، جلَّ وعلا .

لاحظْ أنَّ الاستعاذةَ فَتَحَتْ بابَ الخوفِ ، وأنَّ البسملةَ فتحتْ باب الرجاءِ ، و « الحمدُ للهِ » فتحتْ بابَ المحبةِ للهِ – جلَّ وعلا – ؛ فالذي هذا وَصْفُهُ يُحَبُّ ، والذي هذا نعتُه يستحقُّ الثناءَ ، وهو « ربُّ العالمين » ، وهو صاحبُ هذا الملكوت كلِّه ، الذي بيده كلُّ شيءٍ ، يُفيضُ الخيرَ على مَنْ يشاءُ ، ويَحْبِسُ عَمَّنْ يَشاءُ ، يُعِزُّ مَنْ يشاءُ ، ويُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، هذا القويُّ العزيزُ ، هذا الذي له هذه الصفاتُ ، وهذه النعوتُ ، وهذا الجلالُ ، ألا يستحقُّ أن يُحَبَّ ؟ بلى.. ولا شكَّ .

والآيةُ التي بعدها ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ تفتحُ بابَ الرجاء، لاحظْ رَجَعَ الرجاءُ من جديدٍ .

ثم في قوله : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ تفتحُ بابَ الخوفِ ، الذي هو يومُ الجزاءِ ، فرَجَعَ الخوفُ من جديدٍ ، فينتقلُ التالي بقوله :

« أعوذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ » ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ من خوفٍ إلى رجاءٍ إلى محبةٍ ، ثم ينتقلُ من المحبةِ بقوله : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ إلى الرجاءِ بقولِهِ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ إلى الخوفِ بقولِهِ : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ .

ثم يأتي إلى قولِهِ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ كما سنفصِّلُهُ إن شاء الله تعالى ، وذلك أن العبادةَ مبناها على هذه الأركانِ الثلاثةِ : المحبةِ ، والخوفِ ، والرجاءِ ، وذلك أن محبتَك للهِ تجعلكَ تتحركُ للهِ ، ومحبةَ أهلِ الدنيا تجعلُهم متحركين للدنيا ، ومحبةَ المحبين للملوك تجعلهم يتحركون لهم ، وهكذا ...

فمحبةُ المؤمنِ للهِ تجعلُه يتحرّكُ في طاعة الله ، لكنَّ هذه الحركةَ قد تنقطعُ فلا بدّ لــه من أن يكونَ راجيًا لرحمةِ اللهِ

- جلَّ وعلا - ورجاؤه لرحمة الله - جلَّ وعلا - لا ينقطع عنه ما دام حيًّا ، ولذلكَ بدأ بالبسملةِ التي فيها الرحمةُ ، وفيها الرجاءُ ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، وجاء بعدها ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ التي فيها الرجاءُ ، فكان السابقُ الاستعاذةَ ، والخاتمُ ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ وهو الخوفُ ، ذلك أن المحبَّ لله - جلَّ وعلا - الذي يَرْجُوهُ ، ويتحركُ في مرضاته لا يثبت على هذا السيرِ فلا يلتفت يمينًا و لا شمالاً ، ولا يأخذ السُّبُلَ إلا أن يكون خائفًا.

فاجتمعت هذه الآياتُ في إعمار القلبِ بأعظمِ الإيمانِ ، وهي أركانُ العبادة ، التي مَنْ قامتْ به على وجهِ الكمالِ فقد قامتْ به العبادةُ الحَقَّةُ على وجهِ الكمال .



معنى ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ :

قولُه – جلَّ وعلا – : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فإنَّ ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، اسمان من أسماء الله الحسنى ، وهما في هذا الموضع من حيث العربيةُ نعتانِ لاسمِ (الله) ، نعتانِ للفظ الجلالةِ (الله) ، وهما نعتان للذات المدلولِ عليها باسمِ الجلالة (الله) ، ﴿ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ نعت أول ، ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ نعت ثانٍ ، ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ نعت ثالثٌ ، ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ نعت رابع .

و﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، اسمانِ من الأسماء الحسنى تَضَمَّنَا صفةَ الرحمة لله – جلَّ وعلا – ، وتضمُّنُ اسمِ اللهِ ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ لصفةِ الرحمةِ أبلغُ وأعظمُ وأوسعُ متعلقًا من تضمُّنِ اسمِ اللهِ ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لتلك الصفةِ ، وقد مرّ معنا أن ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ هو المتصفُ بالرحمةِ الواسعةِ ، التي استغرقتِ الأزمنةَ في الدنيا والآخرةِ ، والرحمةُ من صفاتِ الله الذاتية .

و﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ تَضَمَّنَ صفةَ الرحمة المتعلقة بالآخرة ، وعلى هذا دلتْ تفاسيرُ السلفِ ، كما ساق ذلك ابنُ كثير - رحمه الله - من أنّ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ هو رحمنُ الدنيا والآخرةِ ، و﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ رحيمُ الآخرةِ .

والله - جلّ وعلا - موصوفٌ بأنه ذو الرحمةِ ، قال - جلّ وعلا - : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [1] فرحمته - جلّ وعلا - وسعتْ كلّ شيء ، ولفظُ (شيء) اسمٌ لما يَصِحّ أنْ يُعْلَمَ ، ورحمته - جلّ وعلا - وسعتْ كلَّ شيءٍ ، ومعلوم أن قوله : ﴿ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ - فيما سبق من كلامنا عليه - : أنه جمعُ (العالَمِ) ، و(العالَمُ) هذا سميتْ به أنواعُ العوالم ؛ لأن بها عُلِمَ أن الله - جلّ وعلا - هو الخالقُ المتفرِّدُ بالخَلْقِ ، والرزقِ ، والإحياءِ ، والإماتةِ ، وأنواعِ معاني الرُّبوبية .

---

(١) (الأعراف : ١٥٦) .

وهذا وجهُ مناسبةِ ذِكْرِ اسمِ اللهِ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ بعدَ قوله : ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، وذلك أنه متضمنٌ لصفةِ الرحمةِ التي تعلقتْ بكلِّ شيءٍ ، إمَّا في الدنيا ، وإمَّا في الآخرة .

أما في الدنيا : فإن متعلقَ الرحمةِ كلُّ شيءٍ ، كما قال : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (١) ، ورحمةُ الله - جلَّ وعلا - ظاهرةٌ في أنها شملتِ العرشَ ومَنْ حولَه ، والكرسيَّ وما تحته ، وإنما قامتِ السماواتُ برحمةِ اللهِ - جلَّ وعلا - ومَنْ في السماواتِ ، وما في السماواتِ ، فلا غِنَى للسماوات ، ومَنْ فيها وما فيهنَّ عن رحمةِ الله - جلَّ وعلا - طَرْفَةَ عينٍ ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٢) ما في السماءِ الدنيا من أنواعِ العوالمِ ، ومن أنواعِ ما يطيرُ من الأحياءِ ، وما فيها من أنواعِ ما خَلَقَ اللهُ - جلَّ وعلا - ، مما نعلمُ من الهواءِ ونحوه ، ومما لا نَعْلَمُ .

---

(١) (الأعراف : ١٥٦) .

(٢) (فاطر : ٤١) .

كلُّ ذلك من رحمة الله - جلَّ وعلا - بالمخلوق نفسه ، ومن رحمةِ الله - جلَّ وعلا - بمن يـــستفيدُ وينتفعُ بتلك المخلوقاتِ .

إذا نظرتَ إلى الأرضِ بأنواعِهَا من جبلٍ ووادٍ وسَهْلٍ وحَزْنٍ وشجرٍ رأيت جميعَ معالِمِها قامتْ برحمة الله - جلَّ وعلا - ، كلُّ هذا يدل عليه هذا الاسمُ ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، ولهذا قال : ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ ؛ لأن رحمتَه تعلقتْ بكلِّ العالمينَ ، جلَّ وعلا .

إذا نظرتَ إلى البحرِ ، وإلى ما في البحرِ نفسه ، وإلى أنواعِ ما في الأرض ، وما تحتَ الأرضِ من الأحياء ، وما فيها من أنواع مخلوقاتِ الله - جلَّ وعلا - الحيةِ وغيرِ الحية ، أيقنت أن كلَّ ذلك إنما يعيشُ برحمةِ الله - جلَّ وعلا - ، وهذا يبلغُ مبلغًا عظيماً في قلبِ العبدِ ، في معرفة آثارِ الرحمةِ ، وآثارِ اسمِ الله ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ بقدر ذلك .

ولقد حكى ابنُ جرير - رحمه الله تعالى - في التفسير الاتفاقَ على تعلُّقِ الرحمةِ التي في اسم الله ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ بالدنيا والآخرة ، وأما اسمُ اللهِ ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فهو متعلق بالآخرة[1].

ولهذا نقول : إنَّ شمولَ رحمةِ الله - جلَّ وعلا - للكفار ، غُنْمًا لهم في الدنيا ، فهم داخلونَ في متعلَّق الرحمةِ في قوله : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ ، فالكافرُ مرحومٌ في هذه الدنيا بأنواعِ الرحمةِ ، قال - جلَّ وعلا - : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ﴾ [2] الكافرُ يَتَمَتَّعُ في الدنيا بأنواعِ المتاعِ ، ويعيشُ عيشةً ربما كانتْ هَنِيئَةً طيبةً ، وهو كافرٌ يحملُ الشِّركَ بالله ، والكفرَ بالله - جل جلاله - والعياذُ بالله ، ولكنَّ رحمةَ الله - جلَّ وعلا - عَمَّتْ في الدنيا كلَّ شيءٍ .

وأما في الآخرة ، فإن اسمَ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ خاصٌّ بالمؤمنين في الآخرة ، قال - جلَّ وعلا- : ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ

---

(١) انظر « تفسير ابن جرير » (١ : ١٢٦) .

(٢) (البقرة : ١٢٦) .

رَحِيمًا ﴾ (١) فتكرَّرَ ذكرُ رحمةِ اللهِ للمؤمنينَ في الآخرةِ باسم الله ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ ، وباسم الله ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، وتكرر ذكرُ رحمةِ الله - جلَّ وعلا - بالمؤمنين في الدنيا الرحمة الخاصة بهم ، بقوله : ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، وبقوله : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ ، ولهذا قال أهلُ العلم : إن هذين الاسمين ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، يَفْتَحانِ لِمَنْ عَقَلَ أَوْسَعَ أبوابِ المحبةِ لله - جلَّ وعلا - ، ويَفْتَحانِ لمن عَقَلَ أوسعَ أبوابِ الرجاءِ لله - جلَّ وعلا - وقد قال الله - جلَّ وعلا - في الحديث القدسي : « أنا عندَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، فَلْيَظُنَّ بي مَا شَاءَ »(٢).

وذكرتُ لكم - فيما سلفَ - أن قولَه : ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يفتحُ بابَ المحبةِ ، وأنَّ قولَه هنا : ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يفتحُ باب الرجاءِ في القلبِ .

---

(١) (الأحزاب : ٤٣) .

(٢) أخرجه «أحمد» في «مسنده» (٢٥: ٣٩٨) (١٦٠١٦)،و(٢٨: ١٨٧) (١٦٩٧٩) من حديث « واثلةَ بن الأسْقع » ، رضي الله عنه .

ومبحثُ الأسماءِ والصفات ، يبحثه كثيرٌ من المفسرينَ في هذا الموضعِ ، والذي نذكرمنه هو رحمةُ اللهِ - جلَّ وعلا - ، وتكريرُ إثباتها ، وذلك أن الرحمةَ معنًى قام بالله - جلَّ وعلا - ، الرحمةُ صفةٌ ذاتيةٌ قامتْ بالله ، جلَّ وعلا .

والرحمةُ وما كان من جنسها من الصفات ، هذه قد يَعْسُرُ تفسيرُها بمعنى يَشْمَلُ جميعَ أفرادها ، وذلك لأن المعانيَ الكليةَ هذه لا توجد على وجهٍ كُلِّيٍّ إلا في الأذهانِ ، أما في الواقعِ ، وفي الوجودِ ، وخارجِ الذِّهْنِ ، فإنما تُوجَدُ مضافةً ، وتُوجَدُ منسوبةً ، فيقال : رحمةُ العبد بالعبد ، ورحمةُ الوالدِ بولده ، ورحمةُ الأمِّ بوليدها ، ورحمةُ اللهِ بخلقه ، ونحو ذلك .

ولهذا ما كانَ من المعاني الكليَّة ، فإنه يعسُرُ تفسيرُها بتفسيرٍ جامعٍ يصلُحُ لِمَا يَتَعَلَّقُ بالمخلوقِ ، ولِمَا يتعلَّقُ بالخالقِ، ولهذا كثير من العلماء إذا أتى ذكرُ تفسيرِ الرحمة ، أو نحوها من المعاني التي هي صفاتُ الله - جلَّ وعلا - فإنهم يقولون : إنَّ الرحمةَ صفةٌ ، ولا يدخلونَ في تفسيرها ، وهذا

معنى قولِ السلفِ : « أَمِرُّوها كما جاءتْ »[1] ؛ لأن تفسيرَها قد يَلْحَظُ فيه المفسِّرُ لها ما يتعلق أو مَنْ تعلقتْ به الرحمةُ ، وقد يُلْحَظُ في ذلكَ المخلوقُ ، ولهذا ضلَّ من ضلَّ من المبتدعة ، حيثُ فسَّروا الرحمةَ بالرحمةِ في المخلوقِ ، فقالوا : الرحمةُ المعقولةُ هي ميلُ القلبِ لِمَنْ يرحَمُ ، وهذا التفسيرُ إنما نَظَرُوا إليهِ من جهةِ تَعَلُّقِهِ بالبَشَرِ . وهذا من الأغلاطِ الكبيرةِ في تفسيرِ هذه المعاني ، فالصفاتُ التي هي ليست بذواتٍ يمكن أن تحدَّ ، إنما هي معانٍ ففسروها ببعضِ مَنْ تعلقتْ به ، وهو المخلوقُ ، ولَمَّا استحضروا ذلك ، قالوا : إذن لا تصلحُ وصفًا لله - جلَّ وعلا - ، وهم لم يفسروا الرحمةَ من جهةِ المعنى الكليِّ العامِّ الذي يصلُحُ لكلِّ من اتصفَ بها ، وإنما فَسَّرُوهَا ببعضِ مَن اتصفَ بها ، وهو المخلوقُ ، ثم سَعَوْا في نفيِها عَمَّن اتَّصَفَ بها أيضًا وهو الخالقُ

---

(١) قال « ابن تيمية » في « مجموع الفتاوى » (٥: ٣٩) : روى أبو بكر الخلال في (كتاب السنة) عن الوليد بن مسلم قال : سألت مالك بن أنس ، وسفيان الثوري ، والليث بن سعد ، والأوزاعي : عن الأخبار التي جاءت في الصفات . فقال : « أمِرُّوها كما جاءتْ » . وفي رواية : « فقالوا : أمِرُّوها كما جاءت بلا كيف » .

- سبحانه - ، ولهذا يحرِّفونَ ويقولون : إن الرحمةَ هي إرادةُ الإحسانِ إلى الغيرِ . وهم - أعني : الأشاعرةَ والماتريديةَ والكُلاَّبِيَّةَ ومَنْ شابَهَهُمْ - فسروها بهذا التفسير ؛ لأن الإرادةَ عندهم صفةٌ دلَّ عليها العقلُ ، وهم يُثبتونَ سبعَ صفاتٍ ، وكلُّ صفةٍ في القرآنِ ليستْ من الصفاتِ السبعِ التي يُثبتونَهَا لدلالةِ العقلِ ، فإنهم يُرْجِعُونَ تفسيرَها في القرآن إلى أحدِ الصفاتِ السبعِ المذكورةِ عندهم لدلالةِ العقلِ ، فيقولون : الرحمةُ إرادةُ الإحسانِ ، والغضبُ إرادةُ الانتقامِ ، والرضا إرادةُ الإنعام ، ونحو ذلك ، فهم يُفَسِّرونَ هذه بالإرادة ؛ لأن الإرادةَ أحدُ الصفاتِ السبعِ التي يُثبتونها ، وهذا مصيرٌ منهم إلى أنها في هذه الآية ، وما شابَهَ ذلك مجازٌ عن الإحسانِ ، أو إرادةِ الإحسانِ .

وهاهـــنا تنبـــيهٌ بهذا المقامِ ، للمناسبة ، وهو أن المجازَ في الصـــفاتِ ممتنعٌ باطلٌ ، وذلك لأنَّ أهلَ المجازِ يعرِّفونَ المجازَ : بأنه نقلُ اللفظِ مِنْ وَضْعِه الأوَّلِ إلى وضعٍ ثانٍ لمناسبةٍ بينهما. فهـــم يشترطونَ أن يكونَ الوضعُ الأوَّلُ للَفْظِ معلومٍ ، ولهذا ينقلونَها من الوضْعِ الأوَّلِ إلى الوضعِ الثاني لمناسبةٍ ، وباطلٌ

أن يكـــونَ الوضـــعُ الأوَّلُ وهو اتصافُ اللهِ - جلَّ علا - بالرحمةِ معلومًا للمخلوقِ على وجهِ الكمالِ ، وإنما يُعْلَمُ منه ما دَلَّ عليه بعضُ المعنى .

وأما الرحمةُ في معناها الكاملِ التي هي وصفٌ لله ، فإن هذا لا يُعْلَمُ ، ولهذا امتنعَ أن يكونَ الوضعُ الأوَّلُ معلومًا ، لهذا بطلتْ دعوى المجازِ في كلِّ الصفات [1] ؛ لأنَّ الوضعَ الأوَّلَ - على حدِّ تعريفِهم - ليس معلوماً فيمتنعُ الانتقالُ ، كما هو قولُ المحققينَ من أهلِ اللغةِ ، وأهلِ التفسيرِ ، وطوائفَ كثيرةٍ من العلماءِ .

هذه إشارةٌ لهذهِ المسألةِ العظيمةِ.



(١) انظر « مجموع الفتاوى » (٢٠ : ٤٤٣ ، ٤٥٢ ، ٤٥٥ ، ٤٥٨) .

معنى ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ :

قال - سبحانه وتعالى- بعد ذلك : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ وهذا نعتٌ بعدَ النعوتِ السالفةِ ، و ﴿ مَٰلِكِ ﴾ مـــن أسماءِ اللهِ - جل وعلا - ، فهو المالكُ - سبحانه - ، فهنا سَمَّى اللهُ - جل وعلا - نفسَه بخمسةِ أسماءٍ [1] :

الأول : أنه ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

الثاني : أنه ﴿ رَبِّ ﴾، أو ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

الثالث : أنه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾.

الرابع : أنه ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ .

الخامس: أنه ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾.

وإذا تأملت هذه الأسماءَ الخمسةَ وجدتها تتفرعُ عنها جميعُ الأسماءِ من حيث المعنى، فقد ذكرتُ لك أن أسماءَ اللهِ - جلّ جلاله - ، منها ما هو راجع إلى معنى الجلالِ ، ومنها ما هو راجعٌ إلى معنى الجمالِ ، ومنها ما هو راجعٌ إلى معنى

---

(١) انظر « مدارج السالكين » (١ ٨٢) .

الرُّبوبيةِ ، ومنها ما هو راجعٌ إلى معنى الألوهيةِ ، والرُّبوبيةُ ذُكِرَتْ بقوله : إنه ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، وذُكِرَتْ بقوله : إنه ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، ونعوتُ الجلالِ ذُكِرَتْ بقوله : إنه ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ؛ لأن هذا يُورِثُ إجلالَه - جل وعلا - ، والهيبةَ منه والخوفَ ، والوجلَ منه.

وكذلك صفاتُ الجمالِ في قوله : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

كذلك الصفات الراجعة إلى الألوهيةِ بذكرِ اسمِهِ ﴿ ٱللَّهِ ﴾، الذي هو أعظمُ الأسماء.



سورة الفاتحة تحتوي على أصولِ الأسماء الحسنى:

في هذه السورةِ « أصولُ الأسماءِ الحسنى » ، كما قال ابنُ القيم ، وشيخُه شيخُ الإسلام ، وجمعٌ كثير من المحققين - رحمهم الله تعالى - ، في مسائلِ الأسماءِ والصفاتِ [1] .

هنا قال : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ أولاً : من حيث صفةُ اللهِ - جل وعلا - ، هذا يبعثُ على الخَوْفِ ؛ لأنَّ يومَ الدينِ هو يومُ الجزاءِ ، ويومُ الحسابِ .



(١) انظر « مدارج السالكين » (١ : ٨٢ ، ٨٩) .

الحِكَمُ التي يجنيها العبدُ من تلاوة ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ :

فقولــه : ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ مورِثٌ للخوفِ لِمَنْ عَقَلَهُ، فمَنْ قالَها يَتَذَكَّرُ ما في قلبه من أنواعِ الشبهاتِ ، وأنواعِ الشهواتِ ، التي منعتِ استسلامَه الكاملَ لربه - جلَّ وعلا - ، فإذا كان يعقلُ ما يقولُ ، فسيورثُه ذلك خوفًا من ذلك اليومِ الذي يحاسبُ اللهُ - جلَّ وعلا - فيه الخلائقَ ، ولهذا قال العلماء : إن اللهَ - جلَّ جلاله - بدأ في هذه السورةِ بذكرِ ما يحصلُ به العبدُ ، أو بذكرِ ما يُورثُ في العبد المحبةَ لله ، وهو رُبوبيةُ اللهِ - جلَّ وعلا - للعالمين ، وفي ذِكْرِ ما يَبْعَثُ الرجاءَ في القلبِ بقوله : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، ثم ذكرِ ما يبعثُ الخوفَ في القلبِ ، وهو قولُه : ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾.

وسيأتي عند قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ سببُ ذكرِ هذهِ الثلاثِ مجتمعةً في هذه الآياتِ المتتابعَةِ .

قال هنا : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، وقد قُـرِئَتْ [1] ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، و(مالك) من أسماء الله الحسنى ، و(مَلِكِ) من أسماء الله - جلَّ وعلا - أيضًا ، وهناك فرقٌ بينهما : فـ (مالك) من (المِلك) ، أو من (المَلك) ، وهو تَمَلُّكُ الأشياءِ ، من قولك : ملكتُ البيتَ ، وملكتُ الكتابَ .

وأمـا (مَلِكِ) ، فهو من (المُلك) ، و(المُلك) معناه : السـيادةُ، والـتدبيرُ ، والتصرف وقد لا يكون الملك ، أو ذو المُلـك مالكًـا للأعـيان مُلْكًا ، ولكن ينفذُ فيها تصرُّفُه ، ويسوسها ويدبرها.

والله - جلَّ جلاله - موصوفٌ بالصفتين ، ومسمًّى بالاسمين ، وهذا أبلغُ ما يكونُ ، فإذا تَعَلَّقَ قلبُ بشرٍ بما يراه في ملوكِ الدنيا ، من سَعَةِ الملكِ والتدبيرِ ، والأمرِ والنهيِ ، والطاعةِ لهم ، وما يُحدثون في ذلك من أنواعِ الهيبةِ ، أو

---

(١) قرأ « عاصم » و« الكسائي » : « مالكِ يوم الدين » بالألف . وقرأ الباقون بغير ألفٍ . انظر « حجة القراءات » ٧٧ .

الإنعامِ ، أونحو ذلك ، فإنهم يتقاصرونَ مهما بلغوا في ذلك ، عن أن يكونوا مالكين ، وأن يكونوا ملوكًا .

وهنا قال : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ فهــو يملكُه ملكًا ، وأيضًا هو مَلكٌ - جلَّ وعلا - في ذلك اليوم ، فقوله هنا : ﴿مَٰلِكِ﴾ فيه رعايةٌ لهذا المعنى ، وهو أنَّ كلَّ شيءٍ في ذلك اليومِ يملكُه - سبحانَه - ، ومعنى ذلك أنه إنما يرجعُ إليه ، وله - جلَّ وعلا - أنْ يتصرفَ فيه ، وأنْ ينفذَ فيه أمرُه، ولا يَتَصَرَّفُ أحدٌ ، ولا يَفْعَلُ شيئًا إلا من بعدِ إذنه ، فإذا كان ثَمَّ تَعَلُّقٌ بمَنْ تَعَلَّقَ بغيرِ اللهِ - جلَّ وعلا - ، فإنَّ قوله : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ كما نبَّه إمامُ الدعوةِ - رحمه الله - في تفسير هذه السورة ، قال : في هذا إبطالٌ لتعلُّقِ القلبِ بغيرِ اللهِ من الصالحينَ والأنبياءِ والمعبودينَ الذين يطمعُ الطامعُ في شفاعتهم ، فإن الله - جلَّ جلاله - قال في ذكر يوم الدين : ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ [1] ، ﴿ لَا تَمْلِكُ ﴾ أيُّ نفسٍ عن أيِّ نفسٍ شيئًا ،

(١) آخر آية من سورة الانفطار .

لا تنفعُها بشيءٍ ، ولا تدفعُ عنها شيئًا ، والمُلك والمالك لذلك هو الله - جلَّ وعلا - ، ﴿ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ ، وهذا فيه إحداثٌ لتعلقِ القلبِ بالله - جلَّ وعلا- وحدَه ؛ لأنهم إنَّما طَمِعُوا في أن يكونَ أولئكَ يشفعونَ ، ويقرِّبُـــونهَم من اللهِ ، وهذا كلُّه باطلٌ بقوله : ﴿ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [1].



(١) انظـــر تفسير سورة الفاتحة لإمام الدعوة في « مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب » رحمه الله (٢ : ٣٢ – ٣٣) .

معنى ﴿ ٱلدِّينِ ﴾ في لغة العرب والشريعة :

﴿ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، جاءت كلمةُ « الدين » في القرآن على معانٍ ، وأصلُها في اللغة « العادةُ المتكررةُ ».

قال الشاعر [1] :

تَقُولُ إذَا دَرَأْتُ لها وَضِينِي أهـذا دِينُهُ أبدًا ودِيني؟

لهذا ذكر شيخُ الإسلام في قاعدةٍ له في معنى الدين : أنَّ أصلَ الدينِ في اللغة - وهذا الكلام صحيح موافق لعلماء الكلام بالعربية - العادةُ متكررة ، وسُمِّيَ ما يجعلُهُ المرءُ في قلبِه من العقائد ، أو ما يجعلُه المرءُ على لسانِه من الأقوالِ ، أو ما يَعْمَلُهُ بجوارِحِه من العباداتِ ، سُمِّيَ مجموعُ هذا دينًا ؛ لأنه يُفْعَلُ على

---

(١) هو « المُثَقَّب العَبْدِيّ » كما في « المفضليات» ٢٩٢ ، والبيت في «تفسير الطبري» (٢: ٤٧١) و (٦ : ٢٢٥) ، و « إعـراب ثلاثـين سورة » ٢٥ ، و « لسان العرب » (دين) ، و « الدر المصون » (١ : ٥٣) .

درأ الوضين لناقته : بسطه على الأرض ، ثم أبركها عليه ليشدَّ عليها رحلها .

الوضين : حزام الرحل إذا كان من شعر منسوج .

وجهِ العادةِ والتكرُّرِ ؛ لأنه دينٌ يَتكَرَّرُ بالفعلِ، هذا أحدُ الإطلاقاتِ .

فالدينُ يُرادُ به ما يلتزمُه المرءُ من الاعتقادِ ، أو القولِ ، أو العملِ ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [١] .

أيضًا يطلقُ الدينُ ، ويُرَادُ به الجزاءُ ، وذلك في آياتٍ منها ، قوله : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، ومنها قولُه - تعالى - : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ ﴾ [٢] يعني جزاءهم الحقَّ .

فالدينُ يأتي في القرآنِ بمعنى الجزاءِ في آياتٍ كثيرةٍ ، ومن ذلك قوله - تعالى- : ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴾ [٣] يعني بالجزاء.

وقوله - سبحانه - : ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ [٤] يعني غيرَ مَجْزِيِّينَ بأعمالكم ولا مُحَاسبين [٥] .

---

(١) (آل عمران : ١٩) .

(٢) (النور : ٢٥) .

(٣) (الانفطار : ٩) .

(٤) (الواقعة : ٨٦) .

(٥) « تفسير الطبري » (١ : ١٥٧) .

وهناك صلةٌ بين معناه الذي هو بمعنى الجزاء ، والأصلِ اللغوي الذي هو العادةُ أو الشيءُ المتكرِّرُ . ووجهُ الصلةِ بين المعنيين أنَّ الجزاءَ يتكرَّرُ بتكرُّرِ العملِ ، ويطلقُ على الجزاءِ المتكرِّرِ ، إذا كان أصلُه الذي يُجَازَى عليه متكررًا متنوعًا .

❁ ❁ ❁

﴿ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ من أسماء يوم القيامة :

قال : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ، وهو يومُ الجزاءِ والحساب، و﴿ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ من أسماءِ يومِ القيامةِ ، وليومِ القيامةِ أسماءٌ كثيرةٌ في القرآنِ ، معلومةٌ ، و﴿ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ليوم القيامة ، المقصود منه : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (1) ، مع أنَّ يومَ القيامة يشملُ ما بين النفخةِ الأولى في الصورِ إلى أن يدخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنةَ ، وأهلُ النَّارِ النارَ ، هذا كلُّه يومُ القيامةِ من النفخةِ الأولى إلى النفخةِ الثانية ، وما بعدَها إلى دخولِ أهلِ الجنةِ الجنةَ ، ودخولِ أهلِ النارِ النارَ ، فكلُّ ما يَحْدُثُ إذْ ذاك فالمالكُ له اللهُ - جلَّ جلاله - ، كما قال - سبحانه - : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (2) .

---

(1) (المطففين : ٦) .

(2) (غافر: ١٦، ١٧) . انظر « تفسير ابن كثير » (١ : ١٣٤) .

وإذا كان كذلك فقوله هنا : ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ إنما يعني به يومَ الجزاءِ ، وهو ﴿ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ، يعني : حينَ يَصِلُونَ إلى أرضِ المحشرِ ، فهناك المُلكُ يومئذٍ للهِ وحدَه لا شريكَ له ، وما قبلَ ذلكَ الملكُ للهِ بلا شكٍّ .

اللهُ – جلَّ جلاله – مالكٌ للدنيا والآخرةِ ، مالكٌ لما كان قبل النفخةِ الأولى ، وما بعدها ، ولما قبل النفخةِ الثانيةِ ، وما بعدها.



فائدةُ التخصيصِ بـ « يومِ الدين » :

يومُ الدينِ : هو يومُ المجازاةِ ، ويومُ الحسابِ ، ويومٌ تُوَفَّى فيه كلُّ نفسٍ ما عَمِلَتْ ، وهذا تتعلقُ به النفوسُ ، وإنْ كانَ كذلك ، فإنَّ مَنْ كان مالكًا لليوم الذي يُوَفَّى فيه العاملُ عَمَلَهُ يَحْدُثُ له تعلقٌ به من جهة النظرِ إلى ذلك اليومِ ، فيكونُ قد جَمَعَ في قلبه بين نَظَرِه في الدنيا ومحبَّتِهِ ، وعبادته في الدنيا وبين تعلُّقِ قلبِه في الآخرةِ ، فهو إذا كَرَّرَ هذا نَظَرَ إلى هذا المعنى .

كذلك من أوجهِ التخصيصِ أن قوله : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ في مقامِ أن يَحْضُرَ في قلبِ العبدِ المؤمنِ وهو يتلو هذه الآيةَ ما يحصلُ في يومِ الدينِ من جميعِ الأحوالِ ؛ لأنه قال : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ واليومُ يخص فيه جميع تلك الأمورِ ، من قيام الناس من قبورهم ، ومن وصولِ الناس إلى المحشرِ ، وغير ذلك ، إلى أن يدخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهلُ النارِ النارَ .

فكأنَّ المتدبِّرَ المتأمِّلَ إذا قرأ ذلك استَحْضَرَهُ بتفاصيله أَمَامَهُ . وهذا يبعثُ على خوفٍ مُجَدَّدٍ غيرِ الخوفِ الذي أُستفيدَ من قوله : ﴿ مَٰلِكِ ﴾.

وهذا يفيدُنا في تفسير قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وهذا هو الغرضُ الذي بفهمِهِ وبتدبُّره يحصُلُ المقصودُ ؛ لأنَّ الرسلَ إنما بُعثتْ لتُرْشِدَ العبادَ لعبادةِ اللهِ وحدَه دون ما سواه .



تفسير ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ :

قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فأوَّلاً أثنى على الله – جلَّ وعلا – بأنواع الثناءِ ثم قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ وهذا أولُ فعلٍ : نعبدُ .

وأولُ أمرٍ في القرآن : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ [1] ، والعبادةُ هي المقصودةُ في هذا المقامِ ؛ لأنَّ الابتلاءَ إنَّما حَصَلَ في عبادةِ اللهِ ، جلَّ وعلا .

فالعبادُ يَعْبدونُ ربَّهُمْ وَحْدَه دون ما سواه ولا يُشْرِكُونَ به.

لِمَ جاءتْ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ بعدَ ما سَبَقَ ؟

فالجواب : قال أهلُ العلمِ : لأنَّ العبادةَ لها أركانٌ ثلاثةٌ ، بمجيئها مجتمعةً تكون العبادةُ موجودةً شرعًا ، وتلكم الأركانُ الثلاثةُ هي : الحب ، والخوف ، الرجاء[2].

---

(١) (البقرة : ٢١) .

(٢) انظر « مدارج السالكين » (١ : ٢٠٣) .

فالعبادةُ إنما تقومُ إذا كانَ القلبُ محـــبًّا راجيًا خائفًا ، أرأيتَ المصلّي مثلاً إذا صلّى فإنه يُصَلّي وهو يلحظُ محبتَه لربه – جلَّ وعلا – ، ويلحظُ رجاءَه في ربِّه – جلَّ وعلا – أنْ يتقبلَ منه وأن يثيبَه . ويلحظُ الخوفَ منهُ – جلَّ وعلا – أن يعاقبه في يوم الدينِ لو تركَ الصلاةَ ، أو فَرَّطَ فيها .

فالعبادةُ إنما تقومُ على هذه الثلاثةِ : أصلِ الحبِّ ، وأصلِ الرجاءِ ، وأصلِ الخوفِ .

فلو لم يوجد واحدٌ منها صارتِ العبادةُ غيرَ موجـــودةٍ شرعًا ، وإنْ وُجِدَتْ واقعًا .

هنا نُنَبِّه : لمّا قال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ذكرنا أنه فتحَ بابَ المحبةِ ، ولمّا قال : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فتحَ بابَ الرجاءِ ، ولمّا قال : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ فتحَ بابَ الخوفِ . فالعبدُ يقولُ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ إنْ كان يعقلُ وقد قامَ في قلبِهِ ما قامَ من المحبةِ والخوفِ والرجاءِ .

فمن رحمةِ اللهِ – جلَّ جلاله – بالعبد أنه وجَّهَهُ لقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ وهو يخاطبُ ربَّه – جلَّ وعلا – بعدَ أن ذَكَرَ الآياتِ التي تَبْعَثُ في قلبِه المحبةَ والرجاءَ والخوفَ ، حتى يكونَ قولُه ذلك آتيًا على وَفْقِ الشرعِ .



فوائد تقديم ﴿ إِيَّاكَ ﴾ على ﴿ نَعْبُدُ ﴾ :

قال العلماء في ﴿ إِيَّاكَ ﴾ من قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ : إنه مفعولٌ به مقدمٌ ، وهو ضميرٌ منفصلٌ قُدِّم ، والأصلُ أن يتأخَّرَ المفعولُ به عن الفعلِ ، وهنا قَدَّمَهُ على الفعلِ ، وفي تقديمه على الفعل فوائدُ ، منها : الحصرُ والقصرُ .

وهذا مقرَّرٌ في علمِ المعاني ، فمن علوم البلاغة (مبحثُ الحَصْرِ والقَصْرِ) [1] .

وكذلك في أصولِ الفقه في (مبحث مفهومِ المخالفة) [2] .

---

(١) قال « القزويني » في « الإيضاح » (٢ : ١٦٤) : « والتخصيصُ في غالب الأمر لازمٌ للتقديم ، ولذلك يقال في قوله – تعالى – : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ معناه : نخصُّكَ بالعبادة ، لا نعبد غيرك ، ونخصُّك بالاستعانة لا نستعينُ غيرَكَ . وفي قوله – تعالى – : ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (البقرة : ١٧٢) معناه : إن كنتم تخصونه بالعبادة » .

(٢) قال : « الطوفيُّ » في « شرح مختصر الروضة » (٢ : ٧٢٤) : « هو دلالةُ تخصيصِ شيءٍ بحُكمٍ يدُلُّ على نفيه عما عداه وهو مفهوم المخالفة ، أي : المفهومُ منه يُخالفُ المنطوقَ به » . وقد ذكر مثالاً على ذلك في (٢ : ٧٥٤) قولَه – سبحانه –: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ أي: لا نعبدُ إلاَّ إيَّاك الذي فيه تقديم «إياك» على الفعل «نعبد» . ومنه قوله – سبحانه – : ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنبياء : ٢٧) أي : لا يعملون إلاَّ بأمره .

قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ معناه : نقصرُ ونحصرُ عبادَتَنا فيكَ .

قال بعض أهل العلم : « يفيدُ التخصيصَ » يعني : نجعلُ عبادَتَنا مختصةً بكَ وحدَكَ .

وفي قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ توحيدُ العبادةِ بظهور العبادة .

❁ ❁ ❁

معنى (العبادة) في اللغة والشرع :

العبادةُ في اللغة : الخضوعُ والذلُّ . أو الذلُّ وحدَه .

ولهذا قالوا : بعيرٌ مُعبَّدٌ ، إذَا طُلِيَ بالقَطِرَانِ ، وأُفْرِدَ فصارَ ذَليلاً بانْفِرَادِهِ [1] ، ومنه قول « طَرَفَةَ » في معلقته[2] :

إلى أنْ تحَامَتْني العَشيرَةُ كُلُّها وأُفْـــرِدْتُ إفرادَ البَعيرِ المُعَبَّدِ

وقـــيل أيضًـــا : طريقٌ معبّدٌ ، إذا ذُلِّلَ بكثرةِ وَطْءِ الأقدامِ عليه ، ووَطْءِ الحوافرِ ، والمسيرِ عليه .

ومنه أيضًا قول « طَرَفَةَ » في معلقته – في وَصْفِ نُوقٍ –:

تُبارِي عِتَاقًا ناجياتٍ وأَتْبَعَتْ وَظِيفًا وَظِيفًا فَوْقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ[3]

المَوْرُ : الطريقُ المُعَبَّدُ من كثرةِ ما وُطِئَ .

---

(١) قال « الجوهري » في « الصحاح » (عبد ٢ : ٥٠٣): « التعبيدُ : التذليلُ ، يقال: طريقٌ مُعَبَّدٌ . والبعيرُ المُعَبَّدُ : المَهْنُوءُ بالقَطِرَان المُذَلَّلُ » .

(٢) البيت في « شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات » ١٩١ .

(٣) انظر البيت في « شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات » ١٥٣، و« لسان العرب» (مور ٥ : ١٨٦) ، و « الدر المصون » (١ : ٥٧) .

تباري : تعارض . والعتاق : النوق الكرام . والناجيات : السريعات .

والوظيف : عظم الساق . والمعبد : المذلَّل .

قال العلماءُ : العبادةُ في الشرعِ غايةُ الحبِّ مع غايةِ الذُّلِّ ، كما ذَكَرَ « ابنُ القيّم » في النونية [1] ، وذكرَه غيرُه أيضًا .

يُعَرِّفُ شيخ الإسلام [2] – رحمه الله – العبادةَ بأنها : اسمٌ جَامِعٌ لكلِّ ما يُحِبُّهُ اللهُ من الأقوالِ والأعمالِ الظاهرةِ والباطنةِ [3] .

أمـــا الأصوليون ، فيعرِّفون العِبَادة بأنها : ما أُمِرَ به شرعًا من غيرِ اطِّرَادٍ عُرْفِيٍّ ، ولا اقتضاءٍ عَقْلِيٍّ [4] .

وكلُّ هذه صحيحةٌ تصدق على العبادةِ .

فقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ يعني : نُفْرِدُكَ بالعبادةِ من دُون ما سِـــواكَ ، فلا نعبدُ إلا إيَّاكَ ، وهذا فيه توحيدُ العبادةِ ، كما هو ظاهر .

---

(١) قال « ابن القيم » في « الكافية الشافية » (٦٤) :

وعـــبادَةُ الـــرحمنِ غايـــةُ حُـــبِّهِ ... مـــع ذُلِّ عـــابِدِهِ همـــا قُطْـــبَانِ

وعلـــيهما فَلَـــكُ العـــبادةِ دائِـــرٌ ... مـــا دارَ حـــتى قامَـــتِ القُطْـــبَانِ

(٢) المراد به « أحمد بن تيمية » رحمه الله .

(٣) انظر « مجموع الفتاوى » (١٠ : ١٤٩) ، و « فتح المجيد شرح كتاب التوحيد » ١٤.

(٤) انظر « الروض المربع » (١ : ٩) ، و « كشاف القناع » (١ : ٨٥ ، ٤١٨) .

إذن فالمُشْرِكُ الذي أَشْرَكَ بالله وعَبَدَ معه غَيْرَهُ إذا قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ أيكونُ صادقًا أو كاذبًا ؟ حتماً يكون كاذبًا.

ولهذا فالكفارُ والمشركونَ هم أعظمُ الكَذَبَة على الله - جلَّ وعلا - وأعظمُ الكَذَبَة على أنفسِهِمْ . لهذا قال - تعالى - في سورة الأنعام [1] : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ فهـو يشركُ بالله ، ومـع ذلك يقولُ في الصلاة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ . أنتَ عبدتَ ودعوتَ غيرَ الله ، وذبحتَ لغيرِ الله ، واستَغَثْتَ بغيرِ الله ، فكيف لا تَعْقِلُ معـنى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ؟ .

وهذا مِنْ أَعْظَمِ البَلاءِ أن يكون الإِلْفُ للقرآنِ . أو للفاتحة أو لكلمة التوحيد أو للشهادة بأن محمدًا رسولُ الله ، يمنعُ مِنْ تَعَقُّلِ معناها حتى غَدَا مَنْ يَتَكَلَّمُ باللسانِ العربيِّ لا يعقلُ مَعَانِيَ ما يتكلمُ به ، أو ما يسمعُ مِنَ القرآنِ .

قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ وهذا فيه إفرادُ الله - جلَّ وعلا - بالأُلوهيَّةِ .

---

(١) من الآية ٢٤ .

تفسير ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ :

﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وهـذا فيه إفرادُه - جلَّ وعلا - بالاستعانة .

قال العلماءُ : أُخِّرَتِ الاستعانةُ مع أنَّ طلبَ العَوْنِ يكونُ من جِهَةِ الرَّبِّ ، فرجَعَ إلى معنى الرُّبوبيةِ ، قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ لمناسبةٍ عظيمةٍ ، وغَرَضٍ عظيمٍ ، وذلك أنَّ العبدَ المُوَحِّدَ الذي يقولُ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ لا يُمْكِنُهُ أنْ يُوَحِّدَ إلا بأنْ يكونَ مستعينًا باللهِ - جلَّ وعلا - وَحْدَهُ في ذلك . وإلا فإن الشياطينَ تَكْتَنِفُ وتَسْتَحْوِذُ على البشرِ . فهنا قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ في آيةٍ واحدةٍ معطوفةٍ بالواو ، يعني : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فلا نعبدُ إلا أنت وحدَكَ دونَ ما سِوَاكَ ، ﴿ وَإِيَّاكَ ﴾ وحدَك ﴿ نَسْتَعِينُ ﴾ في أمورِنا كلِّها ، وأخصُّ العبادة بكَ وحدَك دونَ ما سواكَ .

وهنا يستحضرُ الموحِّدُ عِظَمَ حاجَته إلى ربِّه - جلَّ وعلا - في أن يثبِّتَهُ على توحيدِه - جلَّ وعلا - ؛ لأنه

لا يُمْكِنُ أن يَثْبُتَ في توحيدِ الله إلا بعونٍ من الله ، فيذهب مع قول العبدِ في صلاتِه : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ كلُّ إعجابٍ بالنفسِ ، وتذهبُ كلُّ ثِقَةٍ بالنفسِ ، ويكونُ العبدُ مخليًا نفسَه وقلبَه مع ربِّه - جلَّ وعلا - وأنه لا غِنًى له عن الله - جلَّ وعلا - طَرْفَةَ عينٍ . نعم إن إفرادَ الله - جلَّ وعلا - بالعبادة ، وإفرادَه -جلَّ وعلا - في طلب الاستعانةِ في جميع الأمورِ . فيه سرٌّ أعظمُ ، ومطلوبٌ أعظمُ ، ومن تَحَقَّقَ به تَحَقَّقَ له الخيرُ الأعظمُ .

❁ ❁ ❁

تفسير ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ :

قال – جلَّ وعلا – بعدَها : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، اهدنـــا يـــا اللهُ . اهْدِ : دعاءٌ ، وهو فعلُ أمرٍ ، وفعلُ الأمرِ – كمـــا هـــو متقرر – إنْ كان لمن هو أرفعُ مِنَ الآمِرِ فإنه دعاءٌ، وإن كانَ لقرينٍ فإنه التماسٌ ، وإن كانَ لمن هو دونَه فإنه أمرٌ (١) .

فقولُهُ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ من رحمة الله – جلَّ وعلا – بالعبدِ أنه أنزلَ هذه الآيات لكي ندعوَ بها .

والهدايةُ هنا مطلوبةٌ من الله ، جلَّ وعلا .



(١) قال « الأخضري » في متن « السلم » :

أمْـــرٌ مَـــعَ اسْـــتِعْلاَ وعَكْسُـــهُ دُعَا   وفِي التســـاوِي فَالْـــتِمَاسٌ وَقَعَـــا

معنى « الهداية » في اللغة والشريعة :

حقـــيقةُ الهداية أنها الدلالةُ والإرشادُ ، في اللغة . هَدَى : يعني دلَّ وأرشدَ.

والهدايةُ في نصوصِ القرآنِ على أربعةِ أنواعٍ [1] :

الأول : هدايـــةٌ غريزيةٌ ، بمعنى هدايةِ الله - جلَّ وعلا - الخَلْـــقَ لما يصلح لهم غريزةً ، وهذا كقوله - جلَّ وعلا - : ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [2] .

الثاني : الهدايةُ بمعنى الدلالةِ والإرشادِ لما يصلُحُ في أمرِ الدين .

الأولى غريزيةٌ فيما يصلُحُ في أمرِ الدنيا .

وهذه دلالةٌ وإرشادٌ لما يصلُحُ في أمرِ الدينِ ، كما في قولِهِ - جلَّ وعلا - لنبيِّنا محمـــدٍ ﷺ : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ

---

(١) ذكـــر هـــذه الأنواع الأربعة « الراغب الأصفهاني » في « مفردات ألفاظ القرآن » (هدى ٥٣٦).

وانظر « تفسير الطبري » (١: ١٦٧- ١٦٩)، و« تفسير ابن كثير » (١:١٣٧).

(٢) (طه : ٥٠) .

مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [1] ، وكقوله : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [2] ، وكقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾[3] ، ونحو ذلك.

وهذه دلالةُ الهدايةِ والإرشادِ يملكُها الرسلُ ، والعلماءُ ، والدعاةُ .

الثالث : الهدايةُ التي هي التوفيقُ الذي يَخْتَصُّ به من اهْتَدَى ، التي هي نتيجةُ الدلالة ، دلَّ وأرشدَ ، فهل يقبلُ أم لا يقبلُ ؟ يحتاجُ في القَبولِ إلى توفيقٍ ، ولهذا قيل : هدايةُ توفيقٍ ، يعني نتيجةً للهدايةِ التي سبقتْ ، وهي هدايةُ الدلالةِ والإرشادِ ، وهذه كما في قوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [4] يعني : لا تُوَفِّقْ مَنْ أحببتَ ولكنَّ اللهَ يُوَفِّقُ مَنْ يشاءُ ، وكما في قوله – عز وجل – : ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [5] .

---

(١) (الشورى : ٥٢) .

(٢) (الرعد : ٧) .

(٣) (السجدة : ٢٤) .

(٤) (القصص : ٥٦) .

(٥) (التغابن : ١١) .

وأما الرابع : - وهو أعظمُها وأجلُّها وغاية جميع أنواعِ الهدايات - وهو الهدايةُ إلى طريقِ الجنة [1] ، والهدايةُ إلى طريقِ النارِ . هدايةُ المؤمنين إلى طريق الجنة ، كما في قوله - تعـالى - : ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ [2] ، قال العلماءُ : قال عنهم : إنهم قُتِلُوا ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ في الآخِرَةِ ، وهم قد قُتِلُوا ، فالهدايةُ ليست هدايةَ الدنيا ، وإنما هي هدايةُ الآخرةِ .

قال أهل التفسير : ﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ إلى طريق الجنة [3] . نسأل الله الكريم فضله .

وكذلك الهدايةُ إلى طريقِ النارِ ، قال - جلَّ وعلا - : ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [4] ، والعياذُ بالله .

---

(١) انظر « مدارج السالكين » (١ : ٥٢) .

(٢) (محمد : ٤ ، ٥).

(٣) في « تفسير ابن كثير » (٧ : ٣٠٩) : « أي : إلى الجنة » .

(٤) (الصـافات : ٢٣) في « تفسير ابن كثير » (٧ : ٩) : « أي : أرشدوهم إلى طريق جهنم » .

﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [1] - نسألُ اللهَ العافيةَ - . فهذه أربعةُ أنواعٍ .

فقولُ القائلِ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ يشملُ الأنواعَ الثلاثةَ : الثاني والثالث والرابع . ولكلٍّ تفسيرٌ .

أما الثاني - وهي هدايةُ الدلالةِ والإرشادِ - فالعبدُ إنما قال ذلك بعدَ أن هُديَ ، يعني بمعنى أنه بُيِّنَ له وأُرْشِدَ ودُلَّ على الإسلامِ ، فالمصلّي يتلو هذه الآيةَ وهو من أهلِ الإسلامِ ، لكنْ يدخلُ في دعوةِ الداعي في قولك لربِّك : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي : دُلَّنا وأَرْشِدْنا على الصراطِ المستقيمِ .

أمـــورُ الصـــراطِ المستقيمِ وأفرادُه وأنواعُه كثيرةٌ لا يمكنُ إحصـــاؤها ، وهذه يتنافسُ في معرفتها العلماءُ . وكلُّ عالمٍ بمســـألةٍ قد دَلَّ وأَرْشَدَ إلى هذه المسألةِ التي هي من مسائلِ الشرعِ الذي هو الصراطُ المستقيمُ .

---

(١) (القصـــص : ٤١) في « تفسير ابن كثير » (٦ : ٢٣٨) : « أي : لمن سلك وراءهم ، وأخذ بطريقتهم ، في تكذيب الرسل ، وتعطيل الصانع » .

فقولُ القائلِ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ يطلبُ من ربه أن يبيِّنَ له ويدلَّه على أنواعِ وأمورِ الصراطِ ، بأنواعِها وأفرادِها وتعدُّدِها ، ولهذا يقولُ الداعي في دعائه : اللهم أرنا الحقَّ حقًّا وارزقْنا اتِّباعَهُ ، وأرِنَا البَاطِلَ باطلاً وارزقْنا اجْتنَابَهُ [1] .

أمورُ الصراطِ المستقيمِ متعددةٌ : مستحباتٌ ، ومكروهاتٌ ، وواجباتٌ بأنواعها ، ومحرماتٌ ، وأنواعُ العلمِ باللهِ ، وأنواعُ العلمِ بأحكامِه ، وأنواعُ العلمِ بآثارِ أسمائِه وصفاتِه في ملكوتِه ، وأمورٌ كثيرةٌ لا يمكنُ أن يحصيَها محصٍ. فالسائلُ في قوله : ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ يدعو ربَّه أن يبيِّنَ له ذلك .

وهذه حاجةٌ من أعظمِ الحاجاتِ نحتاجُها ؛ لذا فإننا نُبيِّنُها ، لكنْ مع ذلك نسألُ اللهَ أنْ يهديَنا بالمعنى الثاني الذي

---

(١) ذكره « ابن كثير » في « تفسيره » (٧ : ٣٠٩) عند تفسير قوله - تعالى -: ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (البقرة : ٢١٣) وصدّره بقوله : « وفي الدعاء المأثور » .

هو هدايةُ التوفيقِ والإلهامِ ؛ لأن الدلالةَ والإرشادَ من دونِ توفيقٍ ولا إلهامٍ ولا تسديدٍ من اللهِ حجةٌ على العبدِ ، وليستْ حجةً له .

فقولُ القائل : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ بعدَ أنْ سألَ اللهَ الدلالـــةَ والإرشاد ، فهو يسألُ اللهَ أنْ يوفقَه لجميعِ أفرادِ الصراطِ المستقيمِ .

وسيأتي تفسيرُ الصراطِ ، إن شاء الله تعالى .

كذلـــك المعنى الأخير الرابع من أنواع الهداية : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ . الصراطُ المستقيمُ صِرَاطَانِ : صراطٌ في الدنيا ، وصراطٌ في الآخرةِ، الصراطُ في الآخرةِ له وَصْفٌ : منصـــوبٌ عـــلى متنِ جهنمَ ، أَحَدُّ من السيفِ ، وأدقُّ من الشَّعْرِ ، على جنباته كلاليبُ كأمثالِ شَوْكِ السَّعْدَانِ .

ونحو ذلك مما جاء وَصْفُهُ في السنة [١] .

والله – جلَّ جلاله – قال في سورة مريم [٢] :

---

(١) انظر وصف الصراط في « تفسير ابن كثير » (٥ : ٢٥٤) عند قوله – تعالى – : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ (مريم: ٧١).

(٢) الآية ٧١ .

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ ودونَ الصراطِ ودونَ الجَسْرِ ظلمةٌ لا يبصرُ طريقَ الصراطِ إلا من أُعطي النورَ الذي يُبْصِرُ به ، كما قال النبي – عليه الصلاة والسلام – في الحديث الصحيح [(1)] : « ودونَ الجَسْرِ – يعني : الصراط– ظُلْمَةٌ » أما الكفارُ فهم في ظلمةٍ لا يدرونَ أينَ الصراطُ ، وجهنمُ يُجاء بها ﴿ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ﴾ [(2)] « لها سبعونَ ألفَ زمامٍ»[(3)] تُسْحَبُ ، ويُنْصَبُ عليها الصراطُ ، وتُجْعَلُ حولَها الظلمةُ ، فيأتي انكفارُ يتهافتونَ فيها تهافُتَ الفراشِ . وهذا الصراطُ الذي هو الطريقُ من العَرَصَاتِ إلى الجنةِ منصوبٌ على متنِ جهنمَ ، من وَصْفِهِ : أنه أدقُّ من الشَّعْرِ وأَحَدُّ من السيفِ ودونَه الظلمةُ ، فَمَنِ الذي يَهْدِي ؟

---

(١) أخـــرجه « مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الحيض – بابُ صفةِ منيِّ الرجُلِ والمـــرأةِ وأنَّ الولــدَ مخلوقٌ من مائَيْهما) (٣١٥) من حديثِ مولى رسول الله ﷺ «ثوبان » – رضي الله عنـــه – .

(٢) (الفجر : ٢٣) .

(٣) أخرجه « مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها – باب جهنم أعاذنا الله منها) (٢٨٤٢) ، بلفظ : « يُؤتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لها سبعونَ ألفَ زمامٍ ، مع كُلِّ زِمَامٍ سَبْعونَ ألفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا » .

لعظَمِ هذا الأمرِ يقولُ الأنبياءُ : « اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ »[1] يقفونَ قبلَ الصراطِ ويقولُ كلُّ نبيٍّ : « اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ . اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ » فالأمرُ شديدٌ . فيستحضرُ الداعي ربَّه – جلَّ وعلا – بقوله : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ يستحضرُ ذلك الصراطَ . فثَمَّ صراطٌ في الدنيا ، وهو ينتقلُ بقلبه إلى صراطِ الآخرةِ ، يسألُ اللهَ أن يَهْدِيَهُ ويَدُلَّهُ ويُرْشِدَهُ على طريقِ ذاك الصراطِ ، فيبصره ويمضي فيه على ما قَدَّرَ اللهُ – جلَّ وعلا – له من السرعة والمضاء ، وهذه أنواعٌ من الدعاء لو حصلتْ للعبدِ لَكُفِيَ بها ، ولهذا يقول العلماءُ : إنَّ أحوجَ سؤالٍ سألَهُ العبدُ ربَّهُ – جلَّ وعلا – هو هذا السؤالُ ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ .

---

(١) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب التوحيد – بـاب قـول الله – تعالى – : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (٧٤٣٧) ، من حديث أبي هريرة – رضي الله عنـه – ، وانظر « فتح الباري » (١٣: ٤٢١) ، و« أحمد » في « مسنده » (١٣ : ١٤٤) (١٦: ٥٢٧) (١٠٩٠٦) .

ومن رحمةِ اللهِ - جلَّ وعلا- بعبادِهِ المؤمنينَ أنهم لا يعلمونَ سؤاله ودعاءه ، وجعلَ لهم هذه السورةَ التي فيها هذا السؤالُ العظيمُ الذي لا يعرِفُ عِظَمَهُ وقَدْرَهُ ، وحاجةَ العبادِ إليه إلا مَنْ وُفِّقَ ، وقليلٌ ما هم .

❁ ❁ ❁

تفسير ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ :

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ المراد به : صراطُ الدنيا وصراطُ الآخرةِ ، أما صراطُ الآخرةِ فقد ذكرتُ لكم معناه ، أما صراطُ الدنيا فقد اختلفتْ أقوالُ المفسرينَ من السلفِ في معناه :

فقال بعضهم : ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ هو القرآنُ.

وقال آخرون : ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ هو الإسلامُ.

وقال آخرون : ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ هو السنةُ .

وقال آخرون : ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ هو اتباعُ النبيِّ ﷺ .

قال العلماءُ كابنِ جريرٍ[1] ، وابنِ كثيرٍ[2] ، وشيخِ الإسلامِ[3] ، وجماعة . كلٌّ هذه الأقوالِ مؤداها واحدٌ ؛ لأنَّ مَنِ التزمَ بالقرآنِ التزمَ بالإسلامِ ، والتزمَ بالسنةِ واتَّبَعَ النبيَّ ﷺ .

---

(١) في تفسيره المسمى « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » (١ : ١٧٢ – ١٧٥) .

(٢) في تفسيره (١ : ١٣٧ – ١٣٨) .

(٣) في « مجموع الفتاوى » (٤ : ٣٩) .

فالعبدُ يسألُ ربَّه أن يهديَه ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ في الدنيا ، يعني : ليهديَهُ إلى الإسلامِ ، ويهديَه إلى القرآنِ ، ويهديَه إلى اتباعِ النبيِّ ﷺ .

وهاهنا سؤالٌ معروفٌ عند أهل التفسير ، وهو أن العبدَ المُصَلِّي قد هُدِيَ إلى الإسلامِ ، وهُدِيَ إلى القرآنِ ، فكيف يسألُ هذا السؤالَ ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ؟

يعني : أَرْشِدْنا ودُلَّنا على الإسلام ، أرشدْنا ودلَّنا على القرآنِ ، أرشدْنا ودُلَّنا على السنةِ ، أرشدْنا ودُلَّنا على اتباعِ النبي ﷺ [1] .

وجواب هذا السؤال :

قال العلماء : إنَّ هذا السؤالَ سؤالٌ لطلبِ الثباتِ على الصراطِ [2] ؛ لأن المصليَ قد حَقَّقَ الإسلامَ ، فهو يسألُ أن يَثْبُتَ عليه ، وهذا معروفٌ في الأوامرِ ، إنَّ معنى مَنْ أُمِرَ بشيءٍ قد تَحَقَّقَ به طَلَبُ الثبوتِ عليه .

---

(١) انظر « تفسير ابن كثير » (١ : ١٣٩) .

(٢) قال « ابن جرير » في « تفسيره » (١ : ١٦٥) هو بمعنى « وَفِّقْنا للثبات عليه ، كما رُوِيَ ذلك عن ابن عباس » .

قال – تعالى – : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ (١) أي : اُثبتْ على تقوى الله ، جلَّ وعلا .

وقال – سبحانه – : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ ﴾ (٢) يعني: اُثْبُتُوا على الإيمان (٣).

هكذا قال كثيرون من أهل العلم . وفي هذا الجوابِ نَظَرٌ .

والصوابُ والأصحُّ الثاني ، وهو أن ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ وإنْ كانَ معناه الإسلامَ ، أو القرآنَ ، أو السنةَ أو اتباعَ النبيِّ ﷺ ، فإن له تفاصيلَ ؛ وذلك أن ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ واسعٌ ، وفيه أمورٌ وتفاصيلُ .

---

(١) (الأحزاب : ١) .

(٢) (النساء : ١٣٦) .

(٣) قال « ابن كثير » في « تفسيره » (٢ : ٤٣٤) عند هذه الآية : « يأمر – تعالى – عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشُعَبِهِ وأركانه ودعائمه ، وليس هذا من باب تحصيلِ الحاصلِ ، بل من باب تكميل الكامل ، وتقريره ، وتثبيته ، والاستمرارِ عليه ، كما يقول المؤمن في كل صلاة : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي : بَصِّرْنا فيه ، وزِدْنا هدًى ، وثَبِّتْنا عليه ، فأَمَرَهُمْ بالإيمان به وبرسولِهِ » .

فالإسلام مبنيٌّ على أركانٍ خمسةٍ ، وله شُعَبٌ .

كذلك الإيمان مبني على أركانٍ ستة ، وله شُعَبٌ : عَقَديّةٌ ، وقوليةٌ ، وعَمَليَّةٌ ، وهكذا الإحسانُ ركنٌ واحدٌ ، وأيضًا هذا الركنُ له شُعَبٌ ، وهكذا.

فأمورُ الإسلامِ متعددةٌ ، آياتُ اللهِ - جلَّ وعلا - في القرآنِ التي هي فيها الإخبارُ ، والأخبارُ متعددةٌ ، أخبرَ اللهُ بأشياءَ كثيرةٍ في القرآنِ ، والأوامرُ متعددةٌ ، والنواهي متعددةٌ .

فحين يسألُ إنما يسألُ اللهَ - جلَّ وعلا - أن يَدُلَّه - كما ذكرتُ لك آنفًا ، وأن يُوَفِّقَهُ لهذه التفاصيلِ جميعًا . وهو سؤالٌ بجميعِ ما يدخلُ في أمورِ الإسلامِ .

ولهذا ليس أحدٌ مستغنيًا عن هذا السؤالِ . الأنبياءُ يحتاجون إلى هذا السؤالَ ، فالنبيّ ﷺ كان يتلو ذلك وهو محتاجٌ إليه ، والصحابةُ - رضوان الله عليهم - يتلونَ ذلك وهم محتاجونَ إليه ، وكلُّ أحدٍ يتلو هذه الآيةَ ويسألُ اللهَ أن

يهديَه ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ بهذا المعنى بتفاصيله وأنواعِهِ وأفرادِهِ ، وكلٌّ أحدٍ بحاجةٍ إلى ذلك بحسبِ حاله .

فإذا تلا التالي هذه الآيةَ ، لا يحق له أن يقول : أنا من أهلِ الهدايةِ فكيفَ أسألُ ؟

لأنه يقال له : إنك في أعظمِ الاحتياجِ والفقرِ إلى أن تسألَ ربَّك أن يَدُلَّكَ على أمورِ هذا الصراطِ المتنوعِ ، وأن يعلِّمَكَ ويفهِّمَكَ ذلك ، ثم يُوَفِّقَكَ إلى هذا في الدنيا بالتزامِهِ ، ثم يعطيكَ جزاءَه في الآخرة بالجوازِ على الصراطِ .

فكلُّ مسألةٍ نحن بحاجةٍ إليها من مسائلِ الصراطِ .

يوضحُ ذلك أن الصراطَ في الآخرةِ لا يَمْضِي عليه إلا مَنْ قَوِيَ يقينُه ، وهكذا الناسُ يَخِفُّونَ في سُرْعَتِهِمْ بقَدْرِ قُوَّةِ يقينهم ، وثباتهم ومعرفَتِهم بهذا الصراطِ في الدنيا ، فبقَدْرِ معرفته بالصراطِ في الدنيا وثباته عليه والتزامه به يكونُ على ذلك الصراطِ شأنُه وحالُه يومَ القيامةِ .

ولهذا قال العلماء : إنَّ ثَمَّ في الدنيا كلاليبَ تُعَلِّقُ بالقلبِ ، وهي كلاليبُ الشهواتِ والشبهاتِ ، كما ذكر ذلك ابنُ القيم في أول « المدارج » [1] قال : فتنبَّهْ إذا عَلِقَتْ بقلبِكَ الشبهاتُ أو الشهواتُ .

تنبَّهْ وتَذَكَّرْ حين تقول : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ تلك الكلاليبَ التي على جَنْبَتَيِ الصراطِ ، وقد قال نبيُّنا – عليه الصلاة والسلام – : « فَمِنْ مَاضٍ – يعني على الصراطِ – ومِنْ مُسَلَّمٍ ، ومِنْ مَخْدُوشٍ ومِنْ مَكْدُوسٍ في النارِ » [2] تخطفُه ذلك ، فبقَدْرِ تَعَلُّقِ الكلاليبِ في الدنيا ، وهي

---

(١) أي : « مدارج السالكين » (١ : ٥٢) .

(٢) هذا قطعة من حديث طويل أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب التوحيد- باب قول الله – تعالى – : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾) (٧٤٣٩) ، من حديث أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – ، ولفظ الشاهد هو : « فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ ، ونَاجٍ مخدوشٌ ، ومكدوسٌ في نارِ جَهَنَّمَ » . انظر « فتح الباري » (١٣ : ٥١٥) ط السلفية . وأخرجه « مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الإيمان – باب أدنى أهل الجنة منــزلة فيها) (٤٨٢) ، من حديث « حذيفة » – رضي الله عنه – ولفظ الشاهد هو : « وفي حافَتَي الصراطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ ، مأمورةٌ تأخُذُ من أُمِرَتْ به ، فَمَخْدُوشٌ ناجٍ ومَكْدُوسٌ في النارِ » .

كلاليبُ الشبهاتِ والشهواتِ يكونُ ذلك ، إنْ لم يغفرِ اللهُ ويتجاوزْ عن عَبْدِهِ .

نسألُ الله - جلَّ وعلا - السلامةَ والعافيةَ .



تذكير بما سبق :

بيَّنَّا معنى الهداية في ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ وكونَ هذه الهدايةِ للصراطِ المستقيمِ ، وأنَّ قوله : ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ فيه تنبيهٌ ؛ لأن هذا القائلَ يقولُ هذه الآيةَ ومعه غيرُه من إخوانه المؤمنينَ ، وفي هذا تنبيهٌ على أن هذه السورةَ ، وهي سورةُ الفاتحة واجبةٌ في الصلاةِ ، أعني : صلاةَ الفرضِ ، وهي صلاةُ الجماعةِ ؛ لأنه قال : ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ ، وهذا تنبيهٌ على أن ذلك إنما يقع لمن كان معه غيرُه ، وأما صلاةُ النفلِ فهي تَبَعٌ لذلك ، وقد تقعُ جماعةً ، وقد لا يكونُ ذلك ، والحكمُ إذا دارَ بين الفرضِ والنفلِ ، فإنه يغلبُ الفرضُ في مسائلَ كثيرةٍ، كما هو معلوم [1] .

قوله : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، أجمعَ اللُّغويّون على أنَّ معنى ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ الطريقُ الواضحُ المستقيمُ الذي لا اعوجاج فيه ، يجمعُ كثرةً من السالكينَ فيه . وحكى عليه

---

(١) انظر « إعلام الموقعين » (٣ : ٥٠) .

الإجماعَ ابنُ جريرٍ الطبريُّ – رحمه الله تعالى – [1] واستشهد على ذلك بقول الشاعر :

أمـــيرُ المؤمنينَ على صِرَاطٍ   إذَا اعْوَجَّ المَوَارِدُ مُسْتَقِيمُ[2]

وهذا كما ذَكَرَ العلماءُ جاء مفصَّلاً بالأدلة الشرعية في الكتابِ والسنةِ ، أعني : معنى الصراطِ ، وقد جَمَعَ ذلك ابنُ القيم وغيرُه ، حيثُ قالوا : إن الصراطَ لا يُسَمَّى صِرَاطًا مستقيمًا حتى يَجْمَع خصالاً :

الأول : أن يكون واحدًا في إيصاله للمقصودِ .

والثاني : أن يكونَ أقصرَ طريقٍ ، وأصحَّ طريقٍ في الإيصالِ للمقصودِ . واستدلَّ لذلك بلفظِ المستقيمِ ، فإن المستقيمَ هو خلافُ المائلِ ، والمائلُ أطولُ من المستقيمِ ، فكانَ في دلالةِ قولِه : ﴿ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، الذي هو نعتٌ لـــ « الصراطِ » ، أنه أقصرُ طريقٍ يُوصِلُ إلى المقصودِ ،

---

(١) في « تفسيره » (١ : ١٧٠) .

(٢) قاله « جرير بن عطيةَ الخَطَفَى » .

والبيت في « المحتسب » (١: ٤٣) ، و« تفسير ابن كثير » (١: ١٣٧) ، و« لسان العرب » (ورد ٣ : ٤٥٩) .

ومعنى ذلك أن غيرَه من الطُّرُقِ إنما هي سُبُلٌ منحرفةٌ معوجةٌ لا توصِلُ إلى المقصودِ على الوجهِ الذي رَضِيَه مَنْ نَصَبَ هذا الصراطَ .

وكذلك لا يُسمى صراطًا مستقيمًا ، حتى يكون واسعًا ، يَكْثُرُ سالكُوه ، وهذا فيه تنبيهاتٌ كثيرةٌ على أنَّ هذا الصراطَ كَثُرَ سالكوه ، وأنَّ الذي يسلُكُهُ وإنْ كان في زمنه وحدَه فإنه ليس وحدَه بالنظرِ إلى كثرةِ مَنْ سَلَكَهُ ، ولهذا قال بعدها : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ ، فهو صراطٌ كَثُرَ السالكونَ فيه ، ولو كان المرءُ في يومه ، أو في زمنِه لا يَرَى سالكًا غيرَ نفسه ، فإنَّ هذا الصراطَ واسعٌ [1] قد سَلَكَتْه فئاتٌ كثيرة من أولياءِ اللهِ ، ومن المطيعينَ له ولرسلِه .

---

(١) في « تفسير ابن كثير » (١ : ١٣٨) : « عن جابر ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ قال : الإسلام ، قال : هو أوسع مما بين السماء والأرض » .

كذلك قالَ - جل وعلا - في وَصْفِ إبراهيمَ - عليه السلام - : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [١] وهو أمةٌ يعني : إمامًا مُقْتَدًى به في الخير [٢] .

وقال إمامُ هذه الدعوةِ الشيخُ محمدُ بنُ عبدِ الوَهَّابِ - رحمه الله تعالى - : إن قوله : ﴿ أُمَّةً ﴾ يعني به الكثرةَ مع كونِه إمامًا يُقْتَدَى به في الخيرِ ، فقال في تفسيرها : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ لئلا يستوحشَ سالكُ الطريقِ من قِلَّةِ السالكينَ[٣] .

فلو لم يجدِ المؤمنُ أحدًا يدعو بهذا الدعاء : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، إلا أنْ يكونَ معه أنبياءُ اللهِ ورسلُ اللهِ - عليهم صلواتُ اللهِ وسلامُه - لكفى بذلك يقينًا له ، ولكَفَى بذلكَ إيناسًا له .

---

(١) (النحل : ١٢٠) .

(٢) انظر « تفسير ابن كثير » (٤ : ٦١٠ - ٦١١) .

(٣) انظر « مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب » في (كتاب فضائل القرآن والتفسير) (٢ : ١٨١) .

فهذه من صفات ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ .

والصراط : ينسب إلى الله - جل وعلا - تارةً ، كما في قوله : ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [1] ، وكما يقال : « صراط الله » ، وينسبُ أو يضافُ تارةً إلى السالكينَ فيه، كما في قوله : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، فالإضافةُ الأولى إنما هي بالنظرِ إلى الذي نَصبَه ووَضَعَه ، والإضافة الثانية إنّما هي بالنظر إلى مَنْ سَلَكَهُ ، وجعلَهُ سبيلاً له ، وكَفَى بهذا طمأنينةً للعبدِ المؤمنِ ؛ لأنه إذا نظرَ إلى أن هذا الصراطَ الذي نَصَبَهُ وجَعَلَهُ طريقاً مُوصِلاً للحقِّ ، مُوصِلاً للمرادِ هو اللهُ - جل وعلا - ، وربُّنا - جل وعلا - على صراطٍ مستقيمٍ ، وأن السالكينَ فيه هم صفوةُ خلقِ اللهِ كان ذلك في قلبهِ أعظمَ ما يكونُ من التطبيق ، ومن إحداثِ اليقينِ ، والطمأنينةِ .

وهذا كما ترى فيه أنواعٌ من الفوائدِ .



---

(١) (هود : ٥٦) .

تفسير ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ :

قال – جل وعلا – بعدها : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾، وهذا الصراطُ عُرِّفَ في الآية الأولى بقوله : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، ونُعتَ بأنه مستقيمٌ ، والتعريفُ في قوله : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، إما للعهدِ ، يعني : الصراطَ المعهودَ ، وإما لبيان حقيقتِه ، وهذا موجودٌ في اللغة .

ثم أكَّدَ ذلك وعرَّفَه تعريفًا أكثرَ بعدَ التعريفِ السابقِ بالإضافةِ التي تقتضي التعريفَ والتخصيصَ [1] ، كما هو مقررٌ في موضعِه في علومِ العربيةِ ، فقال : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، والله – جل وعلا – ذَكَرَ أنه ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾، وأنه ﴿ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، وزاد في تعريفه بأنه صراطُ الذين أنعمَ الله عليهم ، فقال : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ

---

(١) انظر « مدارج السالكين » (١ : ٥٩ – ٦٠) .

أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ ، وهذا له فائدةٌ ، وهي أن ٱلصراطَ من حيث معرفَتُهُ على حقيقتِه قد يشتَبِهُ على كثيرٍ من الخَلْقِ .

أيُّ الصراطِ هو الحقُّ ؟

هو الصراطُ والسبيلُ الذي سَلَكَهُ مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عليهم ، وهذا لا يقعُ معه الاشتباهُ ؛ لأنَّ من الناسِ من لا يُحْسِنُ معرفةَ حقيقةِ الشيءِ من حيث هو ؛ لأنه يحتاجُ إلى علمٍ وإلى نظرٍ واستدلالٍ ، ولكنْ إذا نُظِرَ إليه من جهةِ مَنْ سَلَكَهُ فإنَّه يقعُ به تعريفٌ أخصُّ ، وهذا من فوائدِ التعريفِ بعدَ التعريفِ ، فاللهُ – جل وعلا – قال : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ ، وهذا تعريفٌ له بقولِه : ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ يعني : أنه معروفٌ معهودٌ وصفُه ، معهودةٌ حقيقتُه .

وقال بعدها : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ إذا لم يَصِلِ العبدُ إلى معرفةِ حقيقتِه التي قال فيها : ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ فإنَّ حقيقتَه تُعْرَفُ بالسالكِ فيه .

فمَنْ هو السالكُ لهذا الصراطِ إذا وَقَعَ الاشتباه ؟

هو الذي دَلَّكَ عليه اللهُ – عز وجلَّ – الواحدُ الذي لا يتعدَّدُ ، قال – سبحانه – : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ .

والذين أنعمَ اللهُ عليهم هم أهلُ تقواهُ ، أهلُ تحقيقِ الإسلامِ له ؛ لأن الله –جل وعلا – بيَّنَ في سورة البقرة أن كثيرينَ ادَّعَوْا أنهم سيدخُلونَ الجنةَ من بين سائرِ الفرقِ ، والمِلَلِ والنِّحَلِ ، فقال – سبحانه – : ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ [1] ، ثم بيَّن البرهانَ الذي يستحقُّه مَنْ يدخلُ الجنةَ ، وهي نهايةُ الصراطِ ، وهي الغايةُ التي شَمَّرَ إليها المُشَمِّرُونَ ، وساروا على هذا الصراطِ ليَصِلُوا إليها بعد رضَا الله – جل وعلا – ، وبعدَ رحمته ، فقال بعدها : ﴿ .... تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ﴿ بَلَىٰ ﴾ يعني : بَلَى سيدخلُ الجنةَ ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ

---

(١) (البقرة : ١١١) .

مُحْسِنٌ ﴾ [1] ، يعني : مَنْ جَمَع بين هذَيْنِ الوصفَيْنِ : تحقيقِ الإسلامِ ، وتحقيقِ الإحسانِ في العملِ والمقالِ والاعتقادِ .

بيَّن – جل وعلا – أيضاً في سورة النساء هؤلاء الذين أنعم الله عليهم على وجه التعيين ، فقال – سبحانه – : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ [2] فَبَيَّنَ أنَّ الذينَ أنعمَ اللهُ عليهم ، والذين نُسِبَ إليهم هذا الصراطُ ؛ لأنهم هُمُ الذين سَلَكُوه على نورٍ من ربِّهم ، وعلى برهانٍ صحيحٍ من ربِّهم ، هم النبيونَ والصديقونَ والشهداءُ والصالحونَ ، هؤلاء هم الذين أنعم اللهُ عليهم ، فإن كان العبدُ قد رأى النبيين فهذا صراطُهم ، وإن كانَ رأى الشهداءَ الذين قاتلوا لتكون كلمةُ اللهِ هي العليا في

(١) (البقرة : ١١٢) .

(٢) (النساء : ٦٩ ، ٧٠) .

سبيلِ الله ، فهذا هو صراطُهم ، أو رأى الصديقينَ الذين صَدَقُوا ، وجاؤوا بالصدقِ ، وصدَّقوا به ، فبالنسبة للقول قالوا الصدقَ ، وبالنسبة للاعتقاد لم يعتقدوا خلافَ الواقعِ ، ولم يعملوا بخلافِ ما يجبُ عليهم وهو الواقعُ ، فإن هؤلاء هم الصدِّيقونَ ، فإذا لم تَرَ أولئك فابحثْ عن الصدِّيقينَ ، واقْتَدِ بالصالحينَ ؛ لأنه لا يخلو منهم زمانٌ ، وهم الذينَ قامَ بهم الصلاحُ وجِمَاعُهُمْ صلاحُ القلبِ بما قامَ به من الاعتقاداتِ ، وصلاحُ القولِ بما قام باللسانِ من أنواعِ الكلامِ الطيِّبِ ، وصلاحُ العملِ الذي هو متابعةُ السنةِ .

وهذا يُوَضِّحُ لك هذا الصراطَ بحيث إنه لا يقعُ فيه اشتباهٌ أبدًا ، قال الله - جل وعلا - : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ . ومَنْ هم ؟

هم الذين أطاعُوا الله - جل وعلا - واستجابُوا له ولِرُسُلِهِ ، من أتباعِ الرسلِ ، ومقدمُ أولئك وأئمتهم رسلُ اللهِ وأنبياؤُه ، عليهم الصلاة والسلام .

قال الله – جل وعلا – : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ هذا فيه إسنادُ الإنعامِ إلى اللهِ ، وهذا فيه تنبيهٌ ، فإنهم سلكُوا هذا الصراطَ الذي نسبه الله – جل وعلا – إليهم بقوله : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ ومع أنه أضاف الصراطَ إليهم في هذا الموضعِ لكنه نَبَّهَ على أن سلوكَهم لهذا الصراطِ إنما هو من جهةِ إنعامِ اللهِ عليهم ، لا من جهة أنفسِهم ، فقال : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ .

وهذا فيه إبعادٌ للقلبِ عن الغرورِ بالنفسِ ، وعن الثقةِ بها، وعن اعتقادِ أنه وَصَلَ إلى الاستقامةِ ، أو ثبتَ عليها ، أو سيثبتُ عليها من طريق جُهْدِهِ واجتهادِهِ ، بل إنه لا غنًى للعبدِ عن اللهِ طَرْفَةَ عينٍ ، فالسالكُ لهذا الصراطِ ما سَلَكَهُ إلا بإنعامِ الله عليه، فهو – جل وعلا – الذي هدى إليه ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، وهو الذي دلَّ عليه ، وهو الذي أنعم به سلوكًا ، يعني وَفَّقَ إليه ، فمبتدأُ الأمرِ من اللهِ ،

ومنتهاه إلى اللهِ ، واللهُ - جل وعلا - بعدَ ذلك يثيبُ السائلينَ على الصراطِ ، وهذا أعظمُ ما يكونُ من الرحمةِ والكرمِ والمنةِ والإحسانِ والفضلِ . يُرْشِدُ إليه ، ويُوَفِّقُ إليه ، ويَهْدِي إليه ، ثم بعد ذلك يثيبُ العبدَ ، وهو المنعِمُ المتفضِّلُ ، وهذا لاشكَّ يجعلُ القلبَ في محبةٍ بعدَ المحبةِ ، وفي تَجَرُّدٍ بعد التجرُّدِ ، وفي حُسْنِ تَوَكُّلٍ على الله ، وتفويضِ الأمرِ إليه ، وهضمٍ للنفسِ عن حقوقِها .



تذكير بما سبق :

فالفاتحةُ هي السورةُ العظيمةُ التي فيها أصولُ العقائد ، وأصولُ السلوكِ ، وأصولُ الأحكامِ ، ولهذا سميتْ أمَّ القرآنِ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ (١) هي القرآنُ العظيمُ ، وهي السبعُ المثاني ، وهي أمُّ الكتابِ ؛ لما اشتملتْ عليه من أصولٍ عظامٍ .

قال : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ هؤلاءِ صراطُهم واحدٌ ، وأما غيرُهم فهم على سُبُل ، كما جاء في القرآن ، أو كما يُعبِّرُ بعضُهم : على صُرُط مختلفة ، لكنها صُرُطٌ لا تُوصَفُ بالاستقامةِ ، أو هي سُبُلٌ ليستْ بصُرُطٍ أصلاً ، قال – سبحانه – : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢) فالصراطُ صراطُ اللهِ ، وغيرُ هذا الصراطِ سُبُلٌ ، على كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو الناسَ إلى ذلك السبيلِ ،

(١) (الحجر: ٨٧) .

(٢) (الأنعام: ١٥٣) .

لا حصرَ لها ولا عددَ تتنوعُ وتتفرعُ وتتشعبُ باختلافِ الأزمنةِ والأمكنةِ ، ولكنَّ صراطَ اللهِ واحدٌ أضافَهُ إلى نفسهِ لِتَعْرِفَهُ ، وأضافَه إلى أوليائِهِ السالكين فيه لِتَعْرِفَهُ ، ثم بيّن أيضًا ما به يُعرفُ هذا الصراطُ ، وهو أنه مخالفٌ لطرقِ الهالكينَ .

❁ ❁ ❁

تفسير ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ :

يعني : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ﴾ صراطِ ﴿ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ ، كما هو الراجحُ في هذا الموضع عند جَمْعٍ من أهلِ التفسيرِ[1] .

وقال بعضُ العلماءِ : إن ﴿ غَيْرِ ﴾ هنا استثناء [2] مثل (حاشا) و(كَلاَّ) ، تقول : « دخل الرجالُ غيرَ محمدٍ » ، يعني : إلاَّ محمدًا . وهي للاستثناء ، فقالوا : إن قوله : ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ هذا استثناءٌ منقطع [3] عما سَبَقَ ، يعني : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ

---

(١) قال « ابن كثير » في « تفسيره » (١ : ١٤٠) : « قوله : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ مفسر للصراط المستقيم . وهو بدل منه عند النحاة ، ويجوز أن يكون عطف بيان » .

(٢) هذا على القراءة الشاذة « غيرَ » بالنصب . انظر التفصيل في ذلك « شرح الرضي لكافية ابن الحاجب » القسم الأول (٢ : ٧٧٨) ط جامعة الإمام ، و « الدر المصون » (١ : ٧٢) .

(٣) قال « ابن كثير » في « تفسيره » (١ : ١٤٠) : « قد زعم بعض النحاة أن (غير) هاهنا استثنائية ، فيكون على هذا منقطعًا لاستثنائهم من المنعم عليهم ، وليسوا منهم ..» .

أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ لكــنَّ صراطَ ﴿ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ وصراطَ ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ لا نريدُه ، ولا نبغيه ، ولا نختارُه . وهذا فيه نظرٌ من جهةِ العربيةِ ، ومن جهةِ المعنى المتقرِّر هنا .

والأنسبُ هو الأوَّلُ كما قرَّرَهُ المحققون ، وهو أنَّ ﴿ غَيْرِ ﴾ نعتٌ [1] لما قبلها ، و﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني : ﴿ غَيْرِ ﴾ صراط ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ .

وهنا على هذا التقديرِ هل يُجْعَلُ لهم صراطٌ أم إنها سُبُلٌ لهم ؟

---

(١) قيل : ﴿ غَيْرِ ﴾ بدلٌ من ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ بدلُ نكرة من معرفة .

وقيل : نعت لــ ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ . واستَشْكَلَ بعضُهم ذلك ؛ لأن ﴿ غَيْرِ ﴾ نكرة ، و﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ معرفة ، ولابدّ من مطابقة النعت للمنعوت في التعريف والتنكير .

وأجيب بجوابين :

أحدهما : أن ﴿ غَيْرِ ﴾ هنا مُعَرَّفٌ بالإضافة ؛ لأنه وقع بين ضدين، فسبيل ﴿ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ ضد ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، فانحصرتِ الغَيْرِيَّةُ ؛ لذا تعرف ﴿ غَيْرِ ﴾ بالإضافة .

الثاني : أن الاسم الموصول ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ أَشْبَهَ النكرات في الإبهام الذي فيه فعُومل معاملة النكرات . « الدر المصون » (١ : ٧١) .

الجواب :

هذا على الخلاف هل الصراطُ يقعُ على المحمودِ من السبيلِ أم يقعُ على المحمودِ والمذمومِ من السبيل ؟ خلاف لغويٌّ كذلك اصطلاحي أو استعمالي ، وعلى هذا أو هذا فإننا نقول : إن المعنى (غيرِ صراطِ) إذا كان الصراطُ للمحمودِ والمذمومِ ، أو يضافُ إلى المعنى غير سبيلِ ﴿ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ ؛ لأنَّ اللفظَ إذا حُذِفَ فإنه يصحُّ أن يُقدرَ مكانَهُ لفظُه إنْ صَلَحَ ، أو معناه إنْ لم يصلُح اللفظُ .

وهذه قاعدةٌ تستفيدون منها في المقدراتِ في التفسير وفي غيرِه .



تفسير ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ :

﴿ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ هم اليهودُ ، و﴿ الضالون ﴾ هم النصارى . صحَّ بذلك الحديثُ عن رسول الله ﷺ ، كما رواه الترمذي وغيرُه [(١)] ، وحُكي اتفاقُ المفسرينَ على ذلك .

﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ هم اليهودُ ؛ لأنَّ اللهَ - جل وعلا - وَصَفَهُمْ في القرآنِ بأنه غَضِبَ عليهم في غير ما آية ، كقوله - تعالى - : ﴿ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ [(٢)] ، وكقوله - تعالى - : ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [(٣)] ونحوِ ذلك . وهم مع كونهم مغضوباً عليهم هم أيضاً ضالونَ .

لِمَ وَصَفَ النصارى بالضلالِ مع أنهم مغضوبٌ عليهم أيضًا، وَوَصَف اليهودَ بالغضبِ مع أنهم ضالونَ أيضًا ؟

---

(١) في « مسند الإمام أحمد » (٣٢ : ١٢٤) (١٩٣٨١) من حديث إسلام « عَدِيٍّ بن حاتمٍ » الطويل ، وفيه: قال النبي ﷺ : «إنَّ ﴿ ٱلْمَغْضُوب عَلَيْهِمْ ﴾ اليهودُ ، وإنَّ ﴿ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ النصارى » .

وأخرجه « الترمذي » في « جامعه » في (كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ - باب ومن سورة فاتحة الكتاب) (٢٩٥٣) .

(٢) (البقرة : ٩٠) .

(٣) (الفتح : ٦) .

الجواب :

قال العلماءُ : لأنَّ أخصَّ صفاتِ اليهودِ أَنهم مغضوبٌ عليهم ، ولأنَّ أخصَّ صفاتِ النصارى أنهم ضالون [1] .

فوَصَفَ أولئك وهؤلاء بأخصِّ الصفات التي تُضَافُ إليهم ، نعم اليهودُ ضالونَ ولكنَّ ضلالَهم أشدُّ ؛ لأنه مغضوبٌ عليهم ، والنصارى ضالُّون ، كما قال – جل وعلا – : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [2] .

---

(١) قال « ابن كثير » في « تفسيره » (١ : ١٤١) : « اليهود فقدوا العمل ، والنصارى فقدوا العلم ؛ ولهذا كان الغضب لليهود ، والضلال للنصارى ؛ لأن من عَلِمَ وترك استحق الغضب ، بخلاف مَنْ لم يعلم . والنصارى لما كانوا قاصدين شيئًا لكنهم لا يهتدون إلى طريقة ؛ لأنهم لم يأتوا الأمرَ من بابه ، وهو اتباع الرسول الحق ضلّوا .

وكلٌّ من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليهم ، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب ، وأخص أوصاف النصارى الضلال .. ولهذا جاءت الأحاديث والآثار ».

(٢) (المائدة : ٧٧).

الكلام على « أل » في ﴿ ٱلْمَغْضُوبِ ﴾ :

قال : ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ قال العلماء : إنَّ المغضوبَ من حيث اللفظُ اسمُ مفعولٍ جاءتْ قبله (أل) .

والمتقرِّرُ أنَّ اسمَ المفعولِ إذا دخلته (أل) تكونُ اسمًا موصولاً ، كما قال « ابن مالك » في الألفية :

وَصِفَةٌ صَرِيحَةٌ صِلَةُ «أَل»   وكَوْنُهَا بِمُعْرَبِ الأَفْعَالِ قَلْ

(وَصِفَةٌ صَرِيحَةٌ) أي : اسم الفاعل والمفعول .

فعلى ذلك قوله – تعالى – : ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ كأنه قال : غير الذين غُضِبَ عليهم . وهذا يعني أنَّ أولئك الذين غُضِبَ عليهم كثيرٌ ؛ لأنه عبَّرَ بالاسم الموصولِ الذي هو « أل » في أولها ، أو تكون « أل » هنا للعهد مع كونها موصولةً ، يعني تفيد التعريفَ على اختيار بعض النُحاة [1] .

---

(١) قاله « أبو الحسن الأخفش » وهو ثاني قولي « المازني » . انظر « التصريح بمضمون التوضيح » في (باب الموصول » .

المقصودُ أنه غُضبَ على اليهود ، وسببُ الغضب - كما ذَكَرَ العلماءُ - أنهم عَلموا فخالفوا ، عَلموا عِلْمًا بيّنًا ، وأقيمتْ عليهم الحججُ المتنوعةُ ، واستبانوا الحقَّ ، ووَضُحَ لهم ، ولكنهم خالفوا عن يقينٍ ، وعن معرفة ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [1] حَرَّمُوا الحلالَ وهم يعلمونَ أنّه حلالٌ ، وأحلُّوا الحرامَ وهم يعلمونَ أنّه حرامٌ ، غَيَّرُوا حدودَ الله وهم يعلمونَ أنها حدودُ الله ، فوُصِفوا بأنهم مغضوبٌ عليهم ، والغضبُ جاءَ على اليهود جميعًا مع أن الذي فَعَلَ تلك الأفعالَ إنما هم علماؤُهم ، وهذا يدُلُّ - كما ذكره طائفةٌ من أهل العلم - على أنَّ العامةَ تَبَعٌ لعلمائهم في الحكْمِ . وهذه مسألةٌ مهمة .

وقال عن النصارى : ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ يعني : ولا صراطَ الضالِّينَ ، و« الضالِّينَ » : جمعُ تصحيحٍ للضالِّ ، والضالُّ اسمُ فاعلِ الضلالِ ، أو اسمٌ لِمَنْ قام به الضلالُ .

---

(١) (البقرة : ١٤٦) .

تعريف « الضلال » لغة وشرعًا :

والضلالُ في اللغة : النسيانُ . قال - جل وعلا - : ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ... ﴾ (١) .

وقال - سبحانه - : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (٢) يعني : نَزَّلوا حالَهم إذا انتهتْ لحومُهم وعظامُهم في الأرضِ منـــزلةَ مَنْ نَسِيَ وتفرَّقَ بحيث لم يَعُدْ شيئاً مذكورًا .

والضلالُ نسيانٌ ، يعني أُطْلِقَ على من خَالَفَ الحقَّ عن غيرِ عِلْمٍ نسياناً وإعراضاً عن الحقِّ مع عدمِ عِلْمِهِ به ، وهذا ظاهرُ الصِّلَة بين المعنى اللغويِّ والمعنى الشرعيِّ .

﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ وهم النصارى ؛ لأنهم تَعَبَّدوا بعباداتٍ على جَهَالَة ، ضَلُّوا وهم ليسوا من الذين تعمدوا ذلك ، وقد أوضحَ اللهُ - جل وعلا - هذا في سورة الحديد بقوله :

---

(١) (البقرة : ٢٨٢) .

(٢) (السجدة : ١٠) .

﴿... وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ...﴾[1] .

وهذا فيه التحذيرُ من سبيلين وقعا في هذه الأمة :

السبيلُ الأول : سبيلُ من شابَهَ اليهودَ .

السبيلُ الثاني : سبيلُ من شَابَهَ النصارى .

والناسُ الذين يَتْلُونَ هذه الفاتحةَ في هذه الأمة إما علماءُ فعلاً، أو في حكمهم من طلبة العلمِ ، أو منتسبونَ ، أو نحو ذلك ، وإمَّا مُتَعَبِّدُونَ ليسوا بعلماءَ ، ولا بمنتسبين إلى العلم .

هذان الصنفانِ في الأمةِ ممنْ يَتْلُونَ هذه الفاتحةَ ، ويحافظون عليها في صلاتِهِم .

واللهُ - جل وعلا - بعد أن ذكر الصراطَ ذكرَ وَصْفَهُ باعتبارِ السالكينَ ، وذكرَ ما يتميزُ به هذا الصراطُ باعتبارِ الهالكين ، وهم الذين عَلِمُوا فخالفوا العِلْمَ - نسأل الله جل وعلا العافيةَ - واتَّبعوا أهواءَ هم ، والذينَ تعبدوا الله - جل وعلا - على جهلٍ .

---

(1) (الحديد : ٢٧) .

اشتمال سورة الفاتحة على الدعاء :

وإذا تَبيَّنَ هذا فنرجع إلى قوله : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ فنلحظُ أن هذا الدعاءَ أنزلَهُ اللهُ - جل وعلا - ليرشدَ العبادَ إليه ، ويُبيِّنَ لهم هذا الطريقَ ، فهو - جل وعلا - يُنَبِّهُ العبادَ في دعائهم هذا إلى ما ينبغي أن يكون في قلوبهم ؛ لأنَّ الداعيَ حين يدعو يستحضرُ ما يدعُو به ، فحينَ يقولُ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، فهو يسألُ اللهَ الهدايةَ بهذا الصراطِ ، هو يتكلم أيضًا بوصفِ هذا الصراطِ ، يخاطبُ ربَّه بذلك بقوله : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ معنى ذلك أنه راغبٌ في سلوكِ صراطِ المُنْعَمِ عليهم .

وقال : ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ يعني : أنه غيرُ راغبٍ ولا محبذٍ ولا بقريبٍ ولا يرغبُ بل يستعيذُ باللهِ من صراطِ الذين خالفوا عن علمٍ ، وصراطِ الذين تعبدوا على جهالةٍ ، فترى أن هذه الآياتِ أعطتِ الهدايةَ للقلبِ من

جميعِ جهاته بحيثُ إنه لو تأَمَّلَ هذا الدعاءَ على حقيقتِهِ لاستُغْلِقَتْ عليه مداخلُ الشيطانِ .

فهذا الصراطُ ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ وبإضافته إلى اللهِ وحاجةِ العبدِ إلى هذه الهدايةِ حيث سألَ اللهَ - جل وعلا - ذلك ، يقومُ بقلبه أنه مع هؤلاءِ الذين أنعمَ اللهُ عليهم ، وهم أهلُ طاعةِ اللهِ وطاعةِ رسولِهِ ، وأهلُ تقواه ، ثم يقومُ بقلبِهِ بغضُه وعدمُ رغبته ، وكراهتُه لصراطِ الذين عَلِمُوا فخالَفُوا العلمَ ، والذين تَعَبَّدُوا على جهالةٍ ، وهؤلاء الأصنافُ كثُروا في هذه الأمةِ جدًّا ، أعني : الذين تعبَّدوا على جهالةٍ ، والذين علموا فتركوا العلمَ في العقائدِ ، وفي العباداتِ ، وفي الفقهِ ، وفي السلوكِ .. إلى آخره ، وكذلك الذين تَعَبَّدُوا على غيرِ بصيرةٍ .



الكلام على (آمين) :

ثم يُشْرَعُ لمن أتمَّ الفاتحةَ إذا كان في صلاةٍ أن يقولَ بعدها: « آمـين » [1] . وهـذا اسـمُ فعلٍ بمعنى استجبْ ، وتكون « آمـين » ممدودةً ، وتكون مقصورةً « أمين » ، وهي لغةٌ صحيحة .

---

(١) أخرج « البخاريُّ » في « صحيحه » في (كتاب التفسير - باب : ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾) (٤٤٧٥) ، من حديث « أبي هريرة » - رضي الله عنه - أن رسولَ الله ﷺ قال : « إذا قال الإمام : ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ فقولوا : آمين ، فمَنْ وافقَ قولُه قولَ الملائكة غُفِرَ له ما تقدَّمَ من ذَنْبِه » . وانظر (٧٨١)، (٧٨٢)، (٦٤٠٢).

قالَ « ابن شهاب » : « وكان رسولُ الله ﷺ يقول : آمينَ » (٧٨٠) . وقال « ابنُ حجرٍ » فـي « فتح الباري » (٢ : ٢٦٢) (ط السلفية): «آمينَ» بالمد والتخفيف في جميع الروايات وعن جميع القراء .

وحكى « الواحديُّ » عن حمزة والكسائي الإمالة .

وفيها ثلاث لغات أخرى شاذة : القصر ، والتشديد مع المدِّ ، والقصر .

و « آمين » من أسماء الأفعال . وتفتح في الوصل ؛ لأنها مبنية بالاتفاق .

ومعناها : اللهم استجب ، عند الجمهور .والتأمينُ قائمٌ مقامَ التلخيصِ بعدَ البسط ، فالداعي فَصَّلَ المقاصدَ بقوله : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ إلى آخره ، والمُؤَمِّنُ أتى بكلمة تشملُ الجميعَ ، فإنْ قالها الإمامُ فكأنَّه دعا مرتين مفصلاً ثم مجملاً .

وأخرج «البيهقيُّ»: «وكانَ ابن عمرَ إذا أمَّنَ الناسُ أمَّنَ معهم، ويَرَى ذلك من السُّنَّةِ».

و« آمين » ليست من الفاتحةِ ، ولكنها دعاءٌ بمعنى : استجبْ .

والمؤمِّنُ أحدُ الدَّاعينَ ، يعني : إذا تلا الإمامُ الفاتحةَ ودعَا بهذه الدعواتِ فقال المُؤَمِّنُ بعدَه : « آمين » فكأنه شَرَكَهُ في الدعاءِ ، يعني : كأنه قال هذا الدعاءَ مِنْ أوَّلِهِ إلى آخره لنفسِهِ ولِمَنْ معه ، ودليلُ ذلك قولُه - تعالى - في سورة يونس [1] : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلاً فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ .

مَنِ الذي دعا هذا الدعاء ؟

الداعي، هو موسى، عليه السلام .

ثم قال - جل وعلا - في الآية التي بعدها : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .... ﴾ [2] .

---

(١) الآية : ٨٨ .

(٢) (يونس : ٨٩) .

قال المفسرون : لأنَّ هارونَ أمَّنَ فقال : « آمين » بعد دعاء موسى ، والمُؤَمِّنُ أحدُ الداعِيَيْن ، كأنه دَعَا الدعاءَ بمفرده له ولأخيه (1) ، ولهذا يُحْرَمُ الخيرُ مَنْ لا يُؤَمِّنُ في الصلاةِ .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .



(1) انظر « تفسير ابن كثير » (1 : 146 — 147) .



المحتوى

(١) الآيـــات القرآنية

❁ ❁ ❁

(٢) الأحاديث والآثـــار [1]

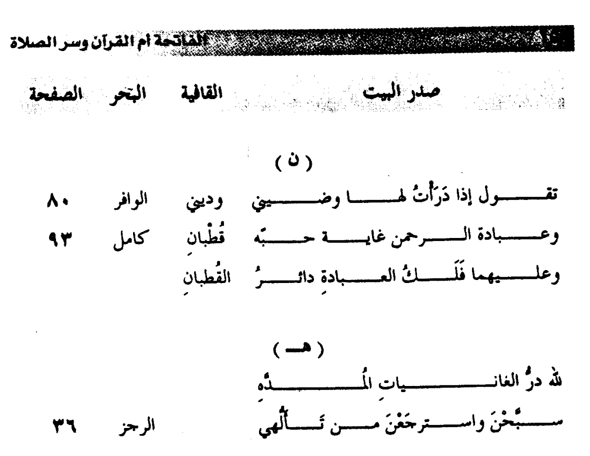
---

(١) الترتيب على حسب أرقام الصفحات .



(٣) الأشعـــار [1]

(١) ذكرت فيها الرجز .



صدر البيت	القافية	البحر	الصفحة
(ن)			
تقـــول إذا دَرَأْتُ لهــــا وضــــيني	وديني	الوافر	٨٠
وعـــبادة الـــرحمن غايـــة حـــبّه	قُطْبانِ	كامل	٩٣
وعلـــيهما فَلَـــكُ العـــبادةِ دائـــرُ	القُطبانِ		
(هـ)			
لله درُّ الغانـــــيات المُـــــدَّهِ			
ســـبَّحْنَ واســـترجَعْنَ مـــن تـــألُّهي		الرجز	٣٦

❁ ❁ ❁

(٤) الموضوعات